آدم عبد الله الإلوري

مؤسس مركز التعليم العربي الإسلامي
أجيجي - نيجيريا

مصباح الدراسات الأدبية في الديار النيجيرية



مكتبة وهبة

١٤ شارع الجمهورية عابدين القاهرة
ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦

مصباح الدراسات الأدبية في الديار النيجيرية
آدم عبد الله الإلوري
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م
الطبعة الأولى مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة.
٨٨ صفحة: ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع: ٢٠١٢/١٣٢٢٠
الترقيم الدولى I.S.B.N
978-977-225-353-1

تحذير



دار الكتب والوثائق القومية
دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية
الإلوري، آدم عبد الله
مصباح الدراسات الأدبية في الديار النيجيرية، آدم عبد الله الإلوري.
القاهرة: مكتبة وهبة ٢٠١٢م.
ص: ١٤×٢٠سم.
تدمك ٣٥٣١ ٢٢٥ ٩٧٧ ٩٧٨
١- الأدب العربى - نيجيريا - تاريخ ونقد
أ- العنوان
٨١٠,٩٩٦٦٩

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر ٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت: ٤٠٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

لما نشرنا الطبعة الأولى من هذه المذكرة عام ١٩٦٧م قلنا إنها مقدمة كمفتاح أو مصباح للدراسة الأدبية في ديار نيجيريا، وقلنا إنها جزء مكمل لما قد تكلفناه من دراسة تاريخ الوطن -وتاريخ الإسلام وتاريخ العلم والعلماء في هذا الوطن.

ولم نزل نبحث في تراث الأقدمين عما يجب نشره وتوزيعه.

وفي تلك الآونة -ولعل ذلك من توارد الخاطر- ظهر عدد ممن كتبوا عن الثقافة العربية في شمال نيجيريا أمثال الدكتور علي أبى بكر ثم الدكتور أحمد غلادنشي وآخرون، فكفوني مؤونة تلك الناحية الشمالية.

وبلغني ممن أثق به أن مبعوثا عربيّاً في جامعة (كانو) لما وقف على هذه الكراسة استخف بأمرها وبخس في ثمنها بحجة أنها خالية من نقد الشاعر الأديب على أسلوب تواطأ عليه أدباء اليوم.

ولكني لم أبال بمثل هذا الاعتراض لأني أعلم أن المرآة المشوهة لا تعطي غير الصور المشوهة.

وبلغنى أن بعض المعاهد أو بعض الأقسام العربية في جامعتنا اهتم

بهذه المذكرة على علاتها تشجيعًا منهم للقلم والعلم والفهم من أبناء الوطن.

لذلك راجعت المذكرة وأضفت إليها بعض مزايدات لابد لطالب الأدب أن يحيط علمًا بها. وأشكر الأساتذة والتلامذة وأرجو لنا ولهم التوفيق.

رجب ١٤١٢هـ

الموافق يناير ١٩٩٢م

آدم عبد الله الإلوري

●●●

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

لقد آليت على نفسي منذ ألزمت أفكاري البحث عن تاريخ هذه البلاد بعد رحلتي العلمية الأولى عام ١٩٤٦م أن لا أهاب كنّاً مغلقًا لا يدرى ما فيه من المزايا الفكرية والثقافية إلا قرعت باب ذلك الكَن لإثارة الأفكار حوله ولإبراز ما فيه من مزية من حيز العدم إلى حيز الوجود وبعبارة أوضح أقول:

لقد تعلمت من سفري إلى بلاد العرب للتنوير والتثقيف ضرورة معرفة تاريخ بلادي وتاريخ الإسلام في بلادي وأخبار علماء بلادي وضرورة تعريف الناس بذلك.

فشرعت في ذلك منذ عام ١٩٤٧م حتى أخرجت كتاب الإسلام في نيجيريا وعثمان بن فودي الطبعة الأولى ١٩٥٠م، والكتاب يحتوي على كيفية دخول الإسلام بغرب أفريقيا منذ القرن الأول الهجري وكيفية انتشاره في أقاليم نيجيريا بما فيها بلاد السنغال ومالي وبرنو وبلاد هوسا السبع ثم بلاد يوربا.

وبشرت القراء أني شرعت في كتابين آخرين أتكلف بنشرهما تحت عنوان (قاموس نيجيريا) والآخر تحت عنوان (أخبار علماء نيجيريا).

فتم بعون الله نشر موجز تاريخ نيجيريا ١٩٦٢م وهو عبارة عن قاموس صغير لنيجيريا فبقي كتاب أخبار علماء نيجيريا وهو الذي أدور حوله حتى الآن.

ولقد اعتنيت بدراسة تاريخ الوطن بذكر أسماء البلاد الكبيرة وتأسيسها وتاريخ الإسلام في كل بلد على النحو الذي لا بأس به بالنسبة للمحيط والبيئة في هذه البلاد في موجز التاريخ.

وكذلك اهتممت بالبحث عن آثار العلم والعلماء في كل بلد من تلك البلاد في كتاب الدراسات الأدبية على أن من يحاول حصر علماء نيجيريا في كراسة صغيرة أو كبيرة أشبه شيء بالذى يحاول حصر أوراق الأشجار في بستان من بساتين الحديقة أو خميلة من خمائل الرُّبا في الغابة.

والحقيقة أنه ليس كل من يطلق عليه اسم عالم يستحق التسجيل للخلود وإنما يستحق الذكر من كان عالمًا مجاهدًا أو كاتبًا أو شاعرًا أو مدرسًا أنتج وأنجب التلاميذ.

ومن هنا يظهر معنى الأدب المطلوب إثبات وجوده في هذه البلاد.

فإن دراسة الأدب العربي في هذه البلاد من الأهمية بمكان، لأن الأدب مظهر الفكر والثقافة ومبلغ النضوج والنبوغ وهو جزء مكمل للتواريخ الإسلامية والوطنية قبل الحضارة الغربية غير أن دارس الأدب في مثل هذه البلاد التي لا تحافظ على التراث يجد نفسه في غابة فينانة يضل بها الخريت أو في بحر عميق يكاد يغرق فيه الملاح أو الغواص، أو في موضوع غامض يحار فيه اللبيب.

فالتوغل في مثل هذه الدراسة يعد مغامرة أدبية يتجنبها من لا يحب أن يستهدف لطعن اللسان الذي هو أجرح عند الأدباء من طعن السنان .

والواقع أنى غريب في هذا الميدان وفى هذا المحيط وفي هذا البحث ولست أبالي حين أجد نفسي غريبًا أو شبه وحيد في المنطقة التي أعيش فيها لا أستعين بأحد في التأليف ولا في التصحيح ولا في التنقيح .

وأنا وحدي الباني والمبلط والمجصص ، وأنا المهندس والنجار والبنَّاء والدهان وقلما يخلص من آفة من هو كذلك .

ولكني يكفيني أني حاولت فتح الباب ليدخل غيري من حيث يشاء .

هذا كله وصف لما كنا عليه في أوائل الأربعينيات والخمسينيات والستينيات عند بدايتي هذا الشأن ونشري للطبعات الأولى من هذه البحوث .

والحمد لله على أنه قد أنشئت الجامعات والمعاهد العليا بعد ذلك فظهر من أبناء الشمال من كتبوا عن تراجم العلماء وعن آدابهم وأشعارهم .

وأولهم فيما أعلم الدكتور علي أبو بكر بن القاضي بمدينة (جوس) ومدينة (بوشي) والدكتور أحمد غلادنشي بجامعة سوكوتو وهو الآن سفير نيجيريا بالمملكة السعودية ورحم الله الدكتور علي أبي بكر قد ذكر اسم كتابي (الإسلام في نيجيريا) ضمن مراجعه ومصادره خصوصًا فيما يتعلق بمدينة إلورن وبلاد يوربا على العموم .

أما الذين أنساهم الشيطان ذكر كتابي الذي سبقهم في البحث وهم تنوروا به فدعائي لهم أن يسامحنا الله وإياهم وأن يغفر لنا جميعًا.

فالبحث عن آثار العلماء ومخلفاتهم يعتبر جهادًا وتعليمًا في خاصة الكتاب فالكتاب والمعلم له فضل على غيره بقوله تعالى: ﴿ **لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾[النساء: ٩٥].

آدم عبد الله الإلوري

●●●



مصباح الدراسات
الأدبية في نيجيريا

هذه الكراسة نشرتها أولاً عام ١٩٦٧م وهي تلخيص من كتابي المسمى -الدراسات الأدبية في نيجيريا- ألفته مع كتابي- الإسلام في نيجيريا- عام ١٩٤٨م

وقد جمعت في تلك الدراسة تاريخ الكتابة العربية العلمية منها والفنية في هذه البلاد وجمعت تراجم العلماء والفقهاء والشعراء والكُتَّاب مع تلك الدراسة مع إيراد ما تيسر من أساليبهم في الإنشاء بقدر ما سمح به الحال إذ الإحاطة بجميع ذلك غير ميسور وما لا يدرك كله فلا يترك جله.

وكنت ظللت أبحث عن الحلقات المفقودة من سلسلة هذا التاريخ من الكتب المخطوطة خصوصًا ما يتعلق ببلاد يوربا، وكان أملي وطيداً في العثور على ذلك فتأخرت في نشر البحث وقدمت هذا المصباح إذ لربما يعينني ظهوره على تكميل بحثي الذي بدأت حتى يخرج تام الحلقة ناضج الثمرة.

وأنا مع هذا وذاك مدين بالشكر لنابغة العصر وناقدة الشعر الأستاذ محمد ناصر الكبرى الفقيه الناثر الأديب الشاعر شيخ علماء مدينة كانو على الإطلاق على مراجعته لهذه الكراسة عند إرسالها للطبعة الأولى ١٩٦٧م وعلى ملاحظاته القيمة فيما يتعلق بعلماء بلاد كانو وغانة وتمبكتو. والله ولي التوفيق.

آدم عبد الله الإلوري

المدخل

تطور معنى الأدب عند العرب

كانت كلمة الأدب مأخوذة من مأدبة الطعام الذي يدعو إليها الكرماء أصحابهم وأحبابهم فيراعون فيها أموراً وعادات وتقاليد حسنة فيوصف بذلك كل من تحلى بتلك التقاليد أنه أديب.

ثم تطورت الكلمة وارتفعت قليلاً إلى المقالات التي يتجاذب أطرافها المدعوون حول هذه المأدبة فصارت الكلمة بعد ذلك تطلق على محاسن الأخلاق مكارمها كما تطلق على التعبير عن المقصود باللفظ الأنيق والمعنى الجميل وعليه ورد قول النبي الكريم (أدبني ربي وأحسن تأديبي) وقوله (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق). ثم تطورت كلمة الأدب إلى الكتابة بسائر أنواعها من رسائل إخوانية وديوانية وعلمية وفكرية ودينية وتاريخية.

ثم أطلقت الكلمة على العلوم العربية التي تمرن على التعبير الصحيح وقد جمعوا تلك العلوم في اثنى عشر علمًا وقالوا:

خذ نظم آداب تضوع نشرها ... وطوشذا المنثور حين تضوع

لغة ونحو واشتقاق صرفها ... علم المعانى والبيان بديع

وعروض قافية وإنشا نظمها ... وكتابة التاريخ ليس يضيع

ومن ثَمَّ أطلق التأديب على التعليم والتمرين والتثقيف.

أنواع الكتب في علم الأدب

على ضوء الاستقراء والتحديد يمكن تقسيم كتب الأدب إلى ثلاثة:

أولها: كتب التصنيف والتدوين في سائر العلوم والفنون.

ثانيها: كتب التحليل والتبيين للمعاني والألفاظ والأساليب.

ثالثها: كتب المقارنات والموازنات بين الشعراء.

فالأول: كل كتاب جمع قصائد شخص واحد في ديوان خاص لتقييدها وتسجيلها وحفظها من الضياع كالذين جمعوا الأشعار الجاهلية. وكذلك كل كتاب جمع أشعار مختلف الشعراء في حيز واحد من غير المقارنة أو الموازنة ككتب الحفظ والاستظهار.

والثاني: كتاب تعرض لنقد شعر الشاعر في ألفاظه ومعانيه لتمييز الجيد من الرديء والصحيح من الفاسد.

والثالث: كل كتاب يقارن بين الشعراء ويضع كل شاعر في طبقة معينة سواء في ذلك من نظر في تاريخ ولادتهم أو من اقتبس من الآخر منهم أو قلد من سبقه منهم في شيء.

أما نحن في هذا المصباح وفي دراسة الأدب في هذه البلاد إنما نهتم بالنوع الأول لأننا في دور التدوين والتسجيل ومن أراد بعد ذلك فليهتم بالنقد أو بالمقارنة وعلى الله قصد السبيل.

نظرة إجمالية في أدبنا العربي النيجيري

المعلوم أن مجرد الكلام العادي بين الأفراد لا يكون أدبًا، كما أن مجرد كتابة أمر عادي لا يقصد به الكاتب فنا فلا يكون أدبًا، وإنما الأدب ما تحلى بالجمال والروعة من خطابة أو كتابة أو شعر وهو غاية ما ينطبع بذهن دارس الأدب حتى يستطيع أن ينتج مثله. والمعلوم أن الإنتاج الأدبي في كل زمان ومكان إنما يقوم على النضوج العلمي في قواعد اللغة ومحفوظات الشعر، وأن بلاد العجم تختلف تمامًا عن بلاد العرب في قوة هذا النضوج إذ الإسلام هو الذي كان ولا يزال يمهد السبيل للأدب العربي في بلاد العجم.

كما أن النضوج الأدبي يحتاج إلى زمن حتى يبلغ العجم مبلغ العرب في الإنتاج، وإنما يتعلم المسلمون اللغة العربية بالدرجة الأولى ليفهموا بها أصول دينهم، أما تعلمهم العربية للإنتاج الأدبي ففي الدرجة الثانية، ومن ثَمَّ يزدهر الأدب العربي الذي يقوم على الثقافة الإسلامية المعتمدة على القرآن والحديث والفقه وما يتصل بها من قواعد اللغة كالنحو والصرف والبلاغة فيستفيض الإنتاج في الشعر والنثر.

ولا شك أن الأصول هي التي تمد الفروع والبيئة هي التي تخلق الأديب كما أن المنطقة هي التي تخرج النبات المناسب لها، وأن أرض المنبع هي التي تؤثر على مائها.

إذا صح هذا أو بعض هذا فلا شك في أن يكون أهل نيجيريا قد دانوا بالإسلام أمداً بعيداً من الزمان ولم يبلغوا مبلغ الإنتاج الأدبي إلا بعد طول

الأمد والمدى ورسوخ القدم في الكتب الأدبية كما لا غرو إذن أن يتجه الأدب العربي في نيجيريا الاتجاه الديني وأن يصطبغ بالصبغة الصوفية التي سيطرت على نفوس المتدينين، وأن يتأثر بالمقومات والمؤثرات التي تمخضت من دراسة المقررات والمحفوظات كالمقامات والأشعار الجاهلية المليئة بالصناعات اللفظية من المحسنات اللفظية والمعنوية.

ولا عجب أن يصطبغ الأدب ويتشكل في ألفاظه وأساليبه بالمقومات التي اصطبغت بها المقامات الحريرية من أدب وزهد وجد وهزل[1].

وأن يتأثر شعرهم بأشعار امرئ القيس والنابغة كما يلاحظ ذلك في قصائد ا بن فودي في تزيين الورقات على أن إنتاج علمائنا في الأدب قليل بالنسبة إلى كثرتهم أو إلى عمق نظرهم وطول عهدهم في العلوم العربية، وكثير من يضيق صدره بالتأليف ولا ينطلق قلمه بالكتابة فراراً من طعن ألسنة الناس الذين يجمدون القرائح أن تجود بما وهبها الله ويقولون:

(لا يزال المرء في فسحة من أمره حتى يؤلف كتابًا أو يقول شعرًا).

ويرون في الانكباب على كتب المتقدمين خيراً لأنهم لم يتركوا للمتأخرين شيئًا وكم قتلوا بذلك براعم العقول التي لو قدر لها الحياة لأزهرت وأثمرت وأتت بالعجب العجاب.

(١) قال العلماء إن الحريري قد التزم أن تكون أولى مقاماته زهدية، الأولى، والحادية عشرة- والحادية والعشرين- والحادية والثلاثين- والحادية والأربعين كلها في الزهد.
كما التزم أن يكون كل سادسة أدبية، السادسة، والسادسة عشر، والسادسة والعشرين، والسادسة والثلاثين، والسادسة والأربعين، وما بقي بعد ذلك هزلية.

والقليل ممن ينشرح صدره بكتابة شعر أو نثر إذا كتب جرد اسمه من مؤلفاته على أن يكتفى بمعرفة أصحابه وتلاميذه أن الكتاب من تصنيفه وتأليفه لئلا يرغب الناس عن اقتنائه إذا عرفوا أنه من تأليف واحد منهم وقد قيل (إن المعاصرة حرمان).

ومع ذلك وجد من اجترأ على قول شعر فأجاد وعلى تأليف كتاب فأفاد وبلغ في ذلك القمة ووصل الذروة التي لا يبلغها أبناء العرب عفواً بلا تعب مع عدم توفر الأسباب وعدم مساعدة السليقة لهم كأبناء العرب ولم يهرب من نسبة شعره أو نثره إليه.

وإني أعتقد أن بلادنا هذه لا تقل شأنًا في ميدان الأدب عن بقية بلاد العالم الإسلامي كالهند والسند والترك والفرس.

ولولا أن كنوزنا الأدبية بقيت مطمورة في خبايا الخفايا ولو اطلع العالم على هذه الكنوز لاعترف بها لنا ولقد عثر عند علمائنا على قصائد وكتب أدبية للقدماء العرب ما قد اندرست آثارها وانطمست معالمها في بلاد العرب، ثم إذا قوبلت نسخ بعض مخطوطات في بلادنا هذه بنسخ بعضها في البلاد العربية وجدنا الزيادة في الأبواب والفصول والسطور بنسخ بلادنا ما لا يوجد في نسخ بلاد العرب ثم إننا إذا علمنا أن ما يصدق عليه عصر الانحطاط الأدبي في البلاد العربية ابتداء من سقوط بغداد في أيدي التتار ثم باستيلاء الأتراك العثمانيين على البلاد العربية هو ذلك العصر الذي عثرنا على آثار النهضة والتقدم في نيجيريا.

إذا علمنا ذلك كله قدرنا عناية علمائنا بالعلم والأدب وقدرنا ما أنتجته قرائحهم حق قدره واعترفنا لهم بفضل السبق وحسن العناية في العلم والأدب، ولم نقل إن النهضة في بلاد العرب هي التي أوحت إلينا بنهضتنا وإنما نقول: (مد هنا وجزر هناك، وتلك الأيام نداولها بين الناس).

ولنا أن ندرس عناصر الأدب العربي الثلاثة كل عنصر على انفراد مع العلم بأن هذه العناصر لا تكون سواسية. نبدأ بالعناصر أولاً ثم نتبعها بالعصور فنقول:

عناصر الأدب ومظاهره

للأدب العربي عناصر ثلاثة هي:

أ- الخطابة.

ب- الكتابة.

جـ- الشعر.

العنصر الأول في نيجيريا

الخطابة

أما الخطابة فهي في نيجيريا أقل شأنًا من أختيها إذ لا مجال لها في الأوساط الأعجمية إطلاقًا كيف يلجأ العجم إلى اللغة العربية لمخاطبة قومهم، ففي لهجتهم غناء خصب، وفي لغتهم مادة دسمة إذا احتاجوا إلى مخاطبة الجمهور في الوعظ والإرشاد أو في الاجتماعات الشعبية

أو السياسية أو فض الخصومات الفردية أو الجماعية لا يحتاجون فيها إلى العربية إلا ما كان محل شاهد للموضوع من الأمثال السائرة.

خطب المنابر:

ليس للخطابة العربية مجال إلا على المنابر الدينية حيث إن الفقهاء اشترطوا أن يكون بعض الخطب الدينية عربية، كالخطابة المنبرية التي تلقى على الناس بالعربية في الجمع والأعياد بغض النظر عن فهمها وعدم فهمها للمستمعين وفي كتب الفقه أن خطبة الجمعة ركن من أركان الجمعة، وذهب ثلاثة من الأئمة هم:

الإمام مالك، والشافعي، وابن حنبل، إلى ضرورة كونها بالعربية حتى ولو كان القوم عجمًا، غير أبي حنيفة الذي أجاز كونها بغير العربية إذا كان القوم عجمًا.

وحدث أخيرًا استعمال خطب الاجتماعات من جراء اتصال العرب بالمسلمين وما ترتب على ذلك من خطب الاستقبال والترحاب والتوديع في الحفلات التي تقام للضيوف على غرار خطب الوفود في الجاهلية وصدر الإسلام، فهذا الذي أوجد مكانًا ضيقًا للخطابة العربية في نيجيريا اليوم في الجامعات والمعاهد والحفلات.

وهناك المحاضرات العلمية التي تلقى بالعربية في بعض المدارس الراقية وفي بعض الهيئات الثقافية إلا أنها قليلة وغير مستمرة وربما استعانوا على فهم هذه المحاضرات بالترجمة أحيانًا ليقف المستمعون على حقائق معانيها بالوضوح التام.

العنصر الثانى

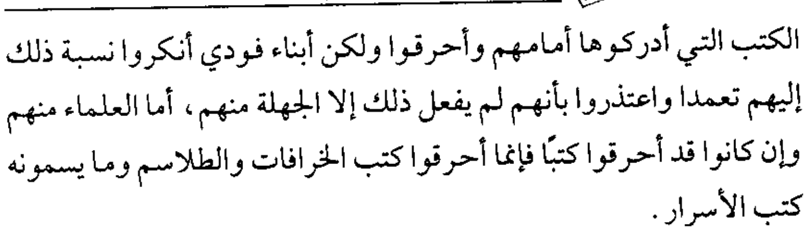
الكتابة العلمية

أما الكتابة العلمية والأدبية فلقد أخذ علماؤنا من الكتابة بالنصيب أكثر مما أخذوا من الخطابة، وإن كانت كتاباتهم قليلة لخوف أكثرهم من خطأ الكتابة فلهم مع ذلك في اللغة والفقه والتصوف مؤلفات قيمة مما يدل على نضوجهم ونبوغهم.

على أن القسط الذي ضاع على التاريخ من آثار علمائنا قسط كبير لايستهان به ذلك لأن الجوائح التي تجتاج الكتب في دنياهم متعددة ومتكررة.

منها الأرضة التي تقتفي آثارهم وتتخذ من ملابسهم وكتبهم غذاء، وكانت بيوتهم ومنازلهم مبنية من كل ما يشتهيه السوس والأرضة.

ومنها الحريق الذي يفاجئهم ويفني ذخائرهم دون رحمة وإشفاق، وإن كان الناس يتعاونون على إطفاء الحرائق في الجيران ولكنه كثيراً يجتاحهم الحريق، ومنها الحروب الداخلية والخارجية التي تدمر كل شيء أتت عليه كالحرب الواقعة بين المنصور الموحدي سلطان مراكش وبين أسكيا إسحاق سلطان سنغي على مناجم الملح مما أدى إلى إلقاء القبض على علماء جامعة (سنكرى) بتمبكتو وحرق مكتبتها ولولا هذه الجوائح لأدركنا من مخلفات علمائنا تراثًا ضخمًا نستطيع أن نفاخر به العالم في الميدان الأدبي والفكري والثقافي، والقليل الموجود منها صالح للعرض والاستشهاد للتاريخ، ومنها ما يقال إن الفلانيين في جهاد ابن فودي مع بلاد هوسا دمّروا كثيراً من



الكتب التي أدركوها أمامهم وأحرقوا ولكن أبناء فودي أنكروا نسبة ذلك إليهم تعمدا واعتذروا بأنهم لم يفعل ذلك إلا الجهلة منهم ، أما العلماء منهم وإن كانوا قد أحرقوا كتبًا فإنما أحرقوا كتب الخرافات والطلاسم وما يسمونه كتب الأسرار .

وقد سبق أن ذمهم العالم العلاَّمة الشيخ محمد الوالي بن سليمان في القرن السابع الهجري :

من عذيري من أناس نجموا ... أفسدوا الدين وأبدوا كل ضر

علم أوفاق رأوه حيلة ... لاكتساب المال والجاه المضر

لقبوه علم سر كذبوا ... ما هو السر ولكن علم شر

العنصر الثالث

الشعر

أما الشعر فلقد ترك علماؤنا من الشعر ما لا يستهان به إذا عُرِضَ على ضوء النقد الأدبي بحيث لو اطلع عليه العربي القح أو الناقد النزيه لما وسعه إلا أن يطأطئ رأسه إعجابًا بالقريحة التي جادت بها رغم بعد الدار وعدم توفر الأسباب .

ولولا أن القرآن يذم الشعر ولا يحبذه إلا ما كان تأييداً للدعوة لكان علماؤنا أكثر الناس شعراً لميل عقليتهم إلى الشعر في لغتهم، ومما يستشهدون به قول الإمام الشافعي :

ولولا الشعر بالعلماء يزري لكنت اليوم أشعر من لبيد

ولكن القرآن قد استثنى الصالح من الشعر بعد ذم الفاسد منه بقوله تعالى:

﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[الشعراء: ٢٢٤- ٢٢٧] لولا ذلك لوجدنا من تركة علمائنا تراثًا جمّا من الشعر.

فاقتصر العلماء على البواعث التي تبعثهم إلى قرض الشعر على الوعظ والإرشاد أو التعليم أو مدح النبي والرثاء كما سيأتي بيانه.

لقد أولع العلماء بالتخميس والتربيع لأشعار السلف كما أولع علماء العرب في العصر التركي بالشرح والتعليق والتقرير دون التأليف الجديد تمسكًا بقول بعضهم: (عليكم بالعتيق وإياكم والمحدثات).

وكما أولع شعراء العصر التركي بالبديعيات في مدح الرسول، مما يعتبر سببًا للانحطاط للأدب في ذلك العصر.

تحديد العصور الأدبية في نيجيريا

لابد للدراسات الأدبية من التحديدات الزمنية لما يعتري الأدب من القوة والضعف ومن الازدهار والذبول غير أنه يرتبك دارس الأدب العربي في

هذه البلاد إذ يجد نفسه تجاه مفترق الطرق لا يدرى أين يتوجه هل يصير على طول القرون فيخرج من قرن إلى آخر ويستقصى ما فيه من علماء وشعراء؟ والقرون التي نهضت بالأدب عديدة وركوبها صعب.

أم ينهج منهج القبائل ويحصر الأدباء والعلماء في حدود كل قبيلة؟ والقبائل التي أنجبت العلماء والأدباء متشعبة والإحاطة بها غير متيسرة.

أم يسلك مسلك الأقاليم فيدرس أدب كل إقليم على حدة؟ والأقاليم التي اشتركت في إنجاب العلماء والأدباء متكاثرة واستيعابها عسير لأنها مترامية.

وأخيراً اخترت تحديد العصور وتقسيم الأطوار على النحو الذي لا يبعد جداً من المذهب المستحسن لتحديد العصور الأدبية في البلاد العربية اليوم رغم أن ذلك التحديد إنما حدث في مطلع هذا القرن حيث اقترحت الجامعة المصرية عام ١٩٠٧م على الأدباء أن يؤلفوا كتب الأدب للدراسة في الجامعات على المنهج الذي اختارته الجامعة فتقدم كثير من الأدباء منهم جرجي زيدان ومصطفى صادق الرافعي فمنذئذ صار العالم العربي على تقسيم العصور الأدبية على خمسة:

١- العصر الجاهلي.

٢- العصر الإسلامي.

٣- العصر العباسي.

٤- العصر التركي.

٥- العصر الحديث.

والجدير بالذكر هنا أني وجدت كتابًا في مجمل تاريخ الأدب التونسي لمؤلفه حسن حسني عبد الوهاب قد جرى على تقسيم الأدب التونسي إلى أربعة أدوار على النحو الذي يماثل حالتنا الأدبية فشجعني على تقسيم أدوار أدبنا على ما يأتي:

أولاً: العصر البرنوي، وهو عصر ظهور الإسلام في شمال نيجيريا ويبدأ من القرن الخامس إلى السابع الهجري.

ثانيًا: العصر الونغري، من القرن السابع إلى التاسع وهو عصر نهضة العلم بتمبكتو وجنى غيرها.

ثالثًا: العصر المغيلي، ويبدأ من القرن التاسع الهجري إلى الحادي عشر الهجري.

رابعًا: العصر الفلاني، ويبدأ بظهور ابن فودي وقيام دولته إلى سقوط سلطنته تحت أقدام الإنكليز.

خامسًا: العصر الإنكليزي، ويبدأ بسقوط سلطنة ابن فودي بأول القرن العشرين إلى الآن.

على أننا لا نتحاشى التداخل المطرد في ذكر الفلانيين أو البرناويين أو الهوساويين في مختلف العصور فليس ذكر العصور إلا لمجرد التحديد والتقييد.

العصر البرنوي أو البربري

إن مدينة برنو لمن إحدى مدن البرابرة القديمة بغرب أفريقيا.

والبرابرة هم حملة الثقافة الأولى من شمالي أفريقيا إلى غربها وحملة الثقافة من الديار المصرية إلى ما وراء الصحراء حتى المحيط الأطلسي.

ولهم أدوار طائلة في نشر الإسلام وحضاراته بتلك البلاد وعلى أيديهم قامت الدولة الإسلامية الأولى في القرن الخامس الهجري بالجزء الشمالي الشرقي حتى شملت بلاد كنو وكاشنة وغيرها مما يعرف بشمال نيجيريا اليوم.

وقد قامت الدولة الإسلامية قبل ذلك بغانة ومالي، كما قامت بعد ذلك دولة سنغاي الإسلامية. وصلة برنو القديمة بجامع فسطاط والجامع الأزهر معروفة ومدونة في كتب التاريخ، ولقد بدأت هذه الصلة من وقت دخول الإسلام حتى الوقت الحاضر.

على أن وقت دخول الإسلام إلى بلد غير وقت قيام دولة الإسلام فيه ويختلف وقت دخول الإسلام إلى مختلف الأقاليم بالقطر الواحد.

إذ أن دخوله إلى إقليم برنو يختلف عن وقت دخوله إلى إقليم كاشنة، ودخوله إلى كانو يختلف عن دخوله إلى كبى ويختلف عن دخوله في غانة ومالي وهكذا دواليك.

مع العلم أن وقت الدخول يختلف تمامًا عن الظهور والازدهار، ومما لا جدال فيه أن دخول الإسلام إلى غربي أفريقيا عمومًا كان بالقرن الأول مع الفتح الإسلامي لشمال أفريقيا.

وأما تاريخ قوته في نيجيريا فيختلف عن وقت ظهور الأدب فيه لأن قيام الدولة هي التي تناصر الأدب والأدباء وتصنعهم على عينها.

ويمكن تحديد العصر البرنوي للأدب بما يبدأ من القرن الخامس حتى السابع الهجري حيث كان الإنتاج الأدبي فيه ضعيفًا وقليلاً لأنه دور الدعوة إلى الدين الجديد ودور التأسيس والتوطيد للثقافة الجديدة ولا يمكن أن يرتقي فيه الأدب إلى درجة الإنتاج لأن الإنتاج متوقف على قوة الإسلام وضعفه وقوة الإسلام موقوفة على قوة الملوك والأمراء الذين يحضنون الإسلام، ويشجعون العلماء على التعمق في الفنون الدينية الشرعية والفنون الثقافية الأدبية وأول ما يظهر من عناصر الأدب في هذا الزمن هو الكتابة الفنية والنثر الفني، أما الكتابة الفنية فلا تنضج في مثل هذا الطور البدائي.

أما الكتابة العادية مثل الرسائل الإخوانية بين العلماء، أو الوثائق الرسمية بين رجال الحكومة فمما يمكن العثور على نماذج منها فيما يأتي إن شاء الله.

الكتابة الأدبية

أنواع الكتابات كثيرة منها الكتابة الدينية ككتب الحديث والفقه، ومنها الكتابة العلمية ككتب النحو والصرف والبلاغة والمنطق، ومنها الكتابة الأدبية كالرسائل والمقالات والتواريخ والقصص وهذه هي التي نحن بصددها حيث ثبت في البدء أن كتابة الرسائل في ديوان الخلفاء هي مصدر الأدب، لهذا قيل: (بدأت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد) وهما

من كُتَّاب الرسائل للخلفاء الأمويين في دواوينهم، واصطبغت الرسائل بصبغة الخطب منذ أوائل عصر الصحابة كما هو ظاهر في كتب الأدب وكما في نهج البلاغة فصار كل كاتب يفتتح رسالته كالخطيب حين يفتتح خطبته.

فكما كانت الرسائل قليلة في العصر الجاهلي وإنما كثرت في العصر الأموي والعباسي وكذلك قلت الرسائل في العصور الأولى من الإسلام في هذه البلاد.

ونقصد بالرسائل ما كتبه أبناء البلاد إلى الخارج لا ما ورد إليها من الخارج فلا تجد أحسن ما يكون شاهداً لذلك غير ما سجله القلقشندي في صبح الأعشى من رسالة ملك برنو إلى السلطان الظاهر البرقوقي في القاهرة حوالي ٧٩٤هـ ونص الرسالة كالآتي(١):

بسم الله الذي جعل الخط تراسلاً بين الأباعد وترجمانا بين الأقارب ومصافحة بين الأحباب ومؤنسًا بين العلماء وموحشا بين الجهال، ولولا ذلك لبطلت الكلمات وفسدت الحاجات وصلوات الله على نبينا المصطفى ورسولنا المرتضى الذي أغلق الله به باب النبوة وختم وجعله آخر المرسلين بشيراً ونذيراً وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيراً ما ناحت الورق وما عاقب الشروق الأصيل، ثم بعد ذلك أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضى الله عنهم أجمعين من المتوكل على الله الملك الأجل سيف الإسلام وربيع الأيتام الملك المقدام القائم بأمر الرحمن المستنصر بالله المنصور في كل حين وأوان،

(١) انظر صبح الأعشى للقلقشندى ٨/ ١١٦.

ودهر وزمان الملك العادل الزاهد التقي النقي الأنجد الأمجد الغشمشم فخرالدين زين الإسلام قطب الجلالة سلالة الكرماء كهف الصدور مصباح الظلام أبي عمرو عثمان الملك ابن إدريس الحاج أمير المؤمنين المرحوم كرم الله ضريحه وأدام ذرية هذا بملكه (هذا اللفظ كله وارد على لسان الكاتب).

إلى ملك مصر الجليل أرض الله المباركة أم الدنيا..

سلام عليكم أعطر من المسك الأذفر وأعذب من ماء الغمام واليمّ زاد الله ملككم وسلطانكم والسلام على جلسائكم وفقهائكم وعلمائكم الذين يدرسون القرآن والعلوم، وجماعتكم وأهل طاعتكم أجمعين.

وبعد ذلك فإنا قد أرسلنا إليكم رسولنا وهو ابن عمي اسمه إدريس ابن محمد من أجل الجائحة التي وجدناها نحن وملوكنا، فإن الأعراب الذين يسمون جذامًا وغيرهم قد سبوا أحرارنا من النساء والصبيان وضعفاء الرجال وقرابتنا وغيرهم من المسلمين ومنهم من يشركون بالله يمارقون الدين فغاروا على المسلمين فقتلوهم قتلاً شديداً لفتنة وقعت بيننا وبين أعدائنا فسميت تلك الفتنة قد قتلوا ملكنا عمرو بن إدريس الشهيد وهو أخونا وابن أبينا إدريس الحاج بن إبراهيم الحاج، ونحن بنو سيف بن ذي يزن والد قبلتنا العربي اليمني وهؤلاء الأعراب قد أفسدوا أرضنا كلها في بلد برنو كافة حتى الآن وسبوا أحرارنا وقرابتنا من المسلمين يبيعونهم لجلاب مصر والشام وغيرهما ويخدمون بعضهم فإن حكم مصر قد جعله الله في أيديكم من البحر إلى أسوان فإنهم قد اتخذوا متجراً فابعثوا الرسل إلى جميع أرضكم وأمرائكم ووزرائكم وقضاتكم وحكامكم وعلماءكم وصواحب أسواقكم

ينظرون ويبحثون ويكشفون فإذا وجدوهم فلينزعوهم من أيديهم فاسألوهم فإن قالوا نحن أحرار ونحن مسلمون فصدقوهم ولا تكذبوهم فإذا تبين ذلك لكم فأطلقوهم وردوهم إلى حريتهم وإسلامهم فإن بعض الأعراب يفسدون في أرضنا ولا يصلحون فإنهم جاهلون بكتاب الله وسنة رسوله فإنهم يزينون الباطل فاتقوا الله واخشوه ولا تخذلوهم يسترقون ويباعون قال تعالى: ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾ [التوبة: ٧١].

وقال تعالى لنبيه: ﴿ **فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ** ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقوله: ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ** ﴾ [البقرة: ٢٥١] وكان عليه السلام يقول: «**السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم**».

وقال: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضهم بعضًا إلى يوم القيامة**».

وقال: «**المؤمن أخو المؤمن لا يظلمه ولا يسلمه**» إلى آخر الحديث.

ومن الفرائض الأمر بالمعروف على كل من بسطت يده في الأرض أراد به السلاطين وعلى من يتصل به أراد به القضاة والحكام والأمراء فإن لم يقدروا فبلسان أراد به الفقهاء والعلماء، وإن لم يقدروا فبالقلب أراد به عامة المسلمين.

أطال الله بقاءكم في أرضكم فازجروا الأعراب المفسدين عن دعرهم، قال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقال عليه السلام: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته».

وقيل في الحكمة: (لولا السلطان لأكل بعضهم بعضًا).

وقال تعالى لنبيه داود عليه السلام ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦] والسلام على من اتبع الهدى.

نقد الرسالة

لسنا بصدد نقد أسلوب الرسالة في ألفاظها ومعانيها، كما لسنا بصدد قبول تعقيب القلقشندي قبل إيراد الرسالة أن الكاتب لما ختم مكاتبته إلى الأبواب السلطانية بقوله: السلام على من اتبع الهدى، وقال ذلك جهل من الكاتب بمقاصد صناعة الإنشاء إذ لا يهتدون إلى حقائقها وهذا على رأي القلقشندى إنما يهمنا أن نجد رسالة من أهل بلادنا هذه إلى بلاد العرب، فالنصوص بالمنزلة الإيجابية والنقد بالمنزلة السلبية. وعندي أن لا بأس بهذه الجملة لأنها جاءت من أحد الخصمين فغريمه الذي يمكن أن يتبع الهدى أو أن يتبع الهوى وإن كان يتبع الهدى فما الداعي للغضب.

ولقد كتب أحد علماء برنو المسمى أحمد بن فرتوه تاريخ برنو من أيام نشأة دولتهم حوالى ١٠٠٠م إلى أيام إدريس الوما الثالث ١٠٧٠ على غرار ما كتب عبد الرحمن السعدي تاريخ سنغي في كتابه تاريخ السودان.

غير أن الكتابين لم يكونا في متناول أيدى الناس، ولو توفرت معي نسخة الآن لنقلت منها جملة أدبية.

العصر الونغري

ويبدأ من القرن السابع الهجري، وهذا العصر منسوب إلى قبائل ونغارا الذين كانت لهم شؤون جليلة وآثار علمية جلية في بلادنا قبل الفلانيين، ولقد أخذ الوناغرة الإسلام والعلم من علماء المغرب وتبحروا في علوم اللغة والأدب والدين، ولهم الفضل في نشر الإسلام إلى مدينتى (كاشنة وكانو) بالقرن الثالث عشر الميلادي، وإليهم يرجع الفضل في نشر العلم في عواصم غانة ومالي وسنغي وكانو وكاشنة وكبي وغيني وتمبكتو.

وقبائل ونغاره مزيج من البرابرة والعرب الغدامسيين الطوارق وقد أنجبت من أبناءها فحولاً ومن مشائخهم عبد الرحمن الزيتي وأبو بكر محمد ابن محمود وغيرهم، ولهم مؤلفات قيمة وأشعار جيدة معروفة في بلادنا.

لقد أخبرني صديقي محمد ناصر كبره الكنوي أن للوناغرة فضلاً كبيراً في نشر المذهب المالكي بهذه البلاد وكانوا يستعملون مختصر ابن الحاجب قبل ظهور مختصر خليل وكان اعتمادهم على المدونة الكبرى لسحنون.

صورة المقالة في العصر الونغري

وإذا كانت بلاد برنو تمثل الجانب الشرقي والشمالي من بلاد نيجيريا وغرب أفريقيا فإن غانة القديمة ومالي وسنغي تمثل الجانب الغربي منها. وأحسن ما نسجله هنا كمثال للمظهر الأدبي في العصر الونغري ما يأتي من المقالة المنسوبة لأحد علماءها وأدباءها الشيخ الركن محمد بن واد الونغري وقد سماها (بدائع الآثار) ويبدو أنه جمعها من أمهات كتب الدين والأدب والأخلاق أولها: الجاهل يعمل بنفسه ما لا يعمل العدو بعداوته.

عجبت لمن يحصن دار الغرور بحذر المطر ولأواء حر الشمس، ولا يحصن الرمس بحذر الحيات والعقارب والديدان.

نعمة الدنيا كسرور الأحلام آخر عزها حقر وحزن قد خاب من أخذهما بصدق.

وإياك يا ابن أخي أن تحمل الدنيا باليدين ولكن احملها بيد واحدة إن سرورها مشوب بالبكاء والحزن.

لا نعمة إلا سرعة الزوال، ولولا الحماقة عندك فكيف تتبع سرورها وعزها في دار السجن.

الدنيا متاع الشيطان إياك لا تشتر متاعه فيأخذك من حيث لا تدري ويدخل النار معك.

الدنيا دار الابتلاء ولا تطلبها يدركك ربك من المبتلين. من أحب قراءة القرآن في دار الملوك والأغنياء لطمع العروض في الحياة الدنيا عاقبه الله بأربعة أشياء:

الأول: يموت فقيراً

والثاني: ينزع الله سيما الصالحين من وجهه.

والثالث: يسميه الملائكة عدو الله ورسوله.

والرابع: يقوم يوم القيامة ملعونًا.

القرآن سيف صارم يقطع الفقر لمن أظهره ويجلب الفقر لمن ضيعه.

ثلاث خصال يجلبون الدار.

لعن الله من سجد لغير الله.

لعن الله من يهتك أسرار أخيه وعباد الله.

لا راحة في كثرة الدَّين.

الحريص فقير وإن ملك الدنيا.

القانع غني ولو عدم حرور الدجاجة وكان فقيراً.

لا غنى لمن لا رضاء له، ومن صبر فقد غنى ولو عدم حرور الدجاجة.

العلم عند الفاجر كالمرآة عند الأعمى.

المال والنسب يتفاخران بالعلم والأدب.

أتباع الجاهل في الحق أفضل من أتباع العالم في الباطل.

لا راد لقضاء الله ومن قال إن الناس كلهم سواء فليس لحماقته دواء.

القلب كالأرض والعمل كالبذر ومن زرع فيها خيراً يحصد رغبته، ومن زرع فيها شراً يحصد ندامة وخير بذرها عمل الدين والعبادة وماؤها كلها الورع وحرثها الاجتهاد والآخرة يوم الحصاد، ومن زرع يحصد ومن لم يزرع لم يحصد شيئًا.

من ترك الطمع فيما في أيدي الناس هو دواء القلب.

حِكَم الإمام علي كرم الله وجهه وخطبه

لقد جمع الشريف الرضى في القرن الرابع الهجري خطبًا ورسائل ومقالات منسوبة للإمام علي كرم الله وجهه في كتاب اسمه نهج البلاغة فهو كتاب ضخم فخم، حتى شك بعض العلماء في نسبة كله أو بعضه إلى الإمام علي وقالوا إنما هي من بنات أفكار جامع الكتاب، وهناك بعض آثار وكتب تحوي حكمًا بالغة نسبت كذلك إلى الإمام علي وأشهرها في غرب أفريقيا ما يسمى الدر المكنون، كما يوجد عند طوائف الشيعة أحكامًا وآثارًا كثيرة كلها منسوبة إلى الإمام علي الذي صح فيه قول النبي (أنا مدينة العلم وعلي بابها).

وأنا أعتقد أن ما نسب إلى الشيخ الركن الونغري في هذه المقالات إنما هي من قبيل ما يحكى ويروى عن الإمام علي كرم الله وجهه.

ومهما يكن الأمر من شيء فإن جمع مثل هذه المقالات من واحد من العلماء الوناغرة في بلاد السودان لدليل على رسوخ قدم العلم والأدب في تلك البلاد منذ أزمان.

عصر المغيلي

ويبدأ من القرن التاسع حتى الحادي عشر الهجري، وقد نسب علماؤنا هذا العصر إلى الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني الذي استوطن مدينة كانو وكاشنة وتصدر للتدريس بها مدة طويلة وأخذ عنه أكابر علمائها لأنه هو العالم العربي الوحيد الذي سجل التاريخ آثاره في هذه البلاد، زار هذه البلاد من تلقاء نفسه أو بدعوة من أمرائها وعلماءها وكلا الأمرين جائز ومحتمل فقد استفادت البلاد منه كثيراً، وآثاره كثيرة في ميادين عديدة واضحة ملموسة بكل صغير وكبير في الحكم والسياسة والعلم والأدب.

وبديهي أن المغيلي لم يزر هذه البلاد إلا بعد ازدهار العلم بها، وقد سبقه إليها علماء من العرب المغاربة وعلماء من قبائل وانغاره منذ القرن الخامس الهجري. ولقد تعلم منه الكثيرون، والكثيرون من علماء هذه البلاد. واتصل بسلاطين كانو وكاشنة واكدز وتكده، ووضع لهم وصايا سياسية على القواعد الشرعية وهي محفوظة في الدوائر الحكومية ومعمول بها في الأوساط الرسمية.

مثال الكتابة في العصر المغيلي

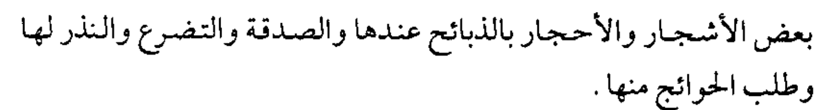
لم نجد في هذا العصر مثالاً يعبر عن واقع الأدب الذي نبع من أرض البلد أكثر مما ورد في الأسئلة والفتاوي التي كتبها أهل البلاد حيث يستفتون المغيلي، ونأخذ المسألة التاسعة كمثال لأنها تحوي الوصف والأخبار وتكشف عن ملكه القادر في التعبير عما يريده حتى يفهم منه غيره وهي

كالآتي بعبارة أحد علماء البلاد وسواء كان من تلاميذ المغيلي أو من علماء بلاط ملك سنغاي، جاء في المسألة ما نصه:

(إن بلاد سنغي وأهلها فإنهم في زعمهم وظاهر أمرهم مسلمون، ومدينتهم فيها الجامع والجمعة والجماعة والأذان للصلوات الخمس وذلك بعد أن كانت كلها بلاد كفر وأهلها عبدة أصنام فقام عليهم بعض أجداد سلاطينها فقتلوا أولئك الكفار وملكوا البلاد المذكورة وسكنوها على الإسلام أكثر من ثلاثين سلطانا قبل (سنوعلي) الذي كان أبوه مسلمًا وكانت أمه من بلد فار بأرض برغو وهم كفار يعبدون الأصنام من الأشجار والأحجار ويتصدقون لها ويسألون حوائجهم عندها فإن أصابوا خيراً زعموا أن تلك الأصنام هي التي أعطتهم وإن لم يصيبوا رأوا أنها منعتهم فلا يغزون حتى يشاوروها وإن قدموا من سفرهم قصدوها ونزلوا عندها وفيهم كهان وسحرة يقصدونها كذلك.

وكان (سنو علي) من صغره إلى كبره كثير الإقامة عندهم حتى نشأ بينهم وتطبع بطباعهم في شركهم وعوائدهم، ثم بعد موت أبيه طلب السلطنة، فقام على أهل سنغاي وقاتلهم حتى غلبهم وتسلطن عليهم كما كان أبوه ومن قبله من ملوك سنغاي.

إلا أنه لما نشأ من صغره إلى كبره بين إخوانه الكفار كان من صفته أنه ينطق بالشهادتين ونحوهما من ألفاظ المسلمين ولكن لا يعرف لذلك حقيقة وإنما يقول ذلك بلسانه ويصوم رمضان ويتصدق كثيراً بالذبائح عند المساجد ونحوها، ومع ذلك يعبد الأصنام ويصدق الكهان ويستعين بالسحرة ويعظم



بعض الأشجار والأحجار بالذبائح عندها والصدقة والتضرع والنذر لها وطلب الحوائج منها.

ومن صفته أيضًا أنه ما رُأي قط في جامع ولا مسجد، لا هو ولا أحد في دائرته في يوم جمعة ولا غيره وفي دائرته ألوف لا يصوم أحد منهم ولا يصلي خوفًا من عقابه إلا خفية. وأما هو فلا يحفظ الفاتحة ولا غيرها ولا يصلي الصلاة المكتوبة في وقتها ولا يقوم ولا يركع لها بل يترك الصلوات الخمس إلى آخر الليل أو إلى وقت الضحى، ثم يجلس كهيئة التشهد ويومئ إلى الركوع والسجود من جلوسه وهو صحيح قوي لا علة به، ولا يقرأ في صلاته تلك شيئًا وإنما يذكر في خفضه ورفعه اسم الصلاة ويقول مثلاً في المغرب المغرب، وفى العشاء العشاء وكذا سائر الصلوات.

ومن صفته أنه لا يتوقف في النساء على نكاح ولا غيره من الشروط الإسلامية، بل كلما أعجبته امرأة في جميع مملكته أخذها وأدخلها في بيته وفراشه، لا يبالي بزوجها ولا أحد من أهلها. ومن صفته أنه حلل دماء المسلمين وأموالهم، وقتل من القراء والفقهاء والعباد والنساء والصبيان والرضع، ونهب من الأموال وسبى من الحريم وباع من الأحرار ما لا يحصى ولم يزل على ذلك مدة عصره حتى مات.

فكان (اسكيا محمد بن أبي بكر التوري) وزيرًا لأبيه وكان وزيرًا له طوال عمره ولما مات ذلك الرجل قام علماء البلاد وطلبوا من الوزير أن يتسلم حكم البلاد حسب ما عرف به أيام الوزارة فقامت أسرة (سنو علي) بالقتال

فقاتلهم التوري حتى غلبهم فملك البلاد وأزال الفساد، فما حكم الإسلام في هذا الجهاد وفي هذه الدولة أيها الإمام؟) اهـ[1].

هذا هو نص الفتوى بعبارة أحد علماء عصر المغيلي وأدبائه أوردناها لتكون مقياسًا للأسلوب الكتابي الأدبي بذلك العصر.

أما جواب المغيليفلا نطيل بذكره لأنه ليس من علماء البلاد بل هو ممن علم علماء البلاد وهو عربي صميم وإن كان فيه دم بربري، فمن أراده فليرجع إلى مظانه. ويلحق بهذا جميع الفتاوى التي وجهت إلى الإمام السيوطي من عبارات علماء هذه البلاد، ويوجد نبذا من ذلك في كتاب الحاوى للفتاوى.

العصر الفلاني

هو ما بين القرن الحادي عشر الهجري حتى الثالث عشر.

يبدأ هذا العصر من أيام علماء كاشنة الفلانيين الذين سبقوا ظهور ابن فودي بنحو مائة عام وهو مليء بأدباء وكُتّاب وشعراء ثم يضاف إليهم العلماء من آل فودي وعلماء من تلاميذهم وأتباعهم حتى العصر الإنكليزي.

مثال الكتابة في العصر الفلاني

نأخذ نموذجًا من كتابات هذا العصر في بدايته وفي وسطه وفي آخره، وأحسن ما يعرض في ذلك هو الكتابة العلميةالتي تلحق بالأدبية من حيث التعليم والتأديب هو كتاب الشيخ عمر بن مودب حمد غعى السيدبي

(١) إن كلمة (سنو) تعني السلطان في لغة إحدى قبائل البربر ومنها كلمة (باسنو) الذي هو جد الإمام المحلي في مدينة إبادن.

الفلاني فيما سماه: (رعاية الغنم الديمومية في مراتع الألفاظ الأجرومية) ألفه لتعليم ولد وصاه والده قبل وفاته فوفى بالوعد عام ثلاث وتسعين ومائة وألف من الهجرة النبوية.

أورد في آخر الكتاب وصايا جمة مفيدة للطالب وقال:

إني أوصي الواقف على هذا التعليق بتقوى الله تعالى وامتثال أوامره واجتناب نواهيه والتأديب للعلماء وأن يعلم أن الله سبحانه ما خلق عباده إلا ليعبدوه قال جل شأنه:

﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات: ٥٦] ولا تحصل تلك العبادة إلا بالعلم ولا يحصل العلم إلا بالنحو فمن طلب النحو وكان متأدبًا لله وللفقهاء ممتثلاً للفرائض منتهيًا عن المناهي رأى ما يسره من الفتح والبركة ونال مناه في العلم ومن لا فلا.

وينبغي لطالب العلم البداءة بالنحو ثم بأصول الدين ثم بالفقه ثم بما تيسر من التفسير والحديث وما يستعان به على ذلك من علوم الآلة فإذا فتح الله له في العلم فعليه حينئذ بالعمل والإخلاص فإن العالم من علم ثم عمل بعلمه.

فليجنب الطالب كثرة تطوع الصلاة والصيام وكثرة الذكر وقت تعلمه فإن ذلك كله محل وليحذر من الذين يحملون العلم بأفواههم ولا يجاوز تراقيهم فهم القاسية قلوبهم، وعلامتهم كثرة النزاع والجدال في المسائل وكثرة الضحك والوقوع على لحوم الناس والغفلة عن وقت الصلاة،

ويتباهون بعلومهم ويتصنعون بها للعوام، ويغضب أحدهم على تلميذه إذا رآه يتعلم عند الآخر، وعسى أن يكون هؤلاء الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

كونوا بقبول العمل أشد اهتمامًا منكم بالعلم وخالطوا الناس بألسنتكم وزايلوهم بأعمالكم وقلوبكم فإن للمرء ما اكتسب وهو يوم القيامة مع من أحب، جعلنا الله وإياكم ممن أحب نبيه والذين يحشرون في زمرته ويكونون معه إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير.

نموذج آخر في العصر الفلاني

رسالة الشيخ محمد الأمين الكانمي

إلى صديقه الشيخ أحمد القادري

الحمد لله الذي لم يكلف عباده بما ليس في وسعهم، والصلاة والسلام على من هدى الخلق وأبان لهم طريق رشدهم سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه الذين بذلوا في نصح الأمة غاية جهدهم.

من عبد الله محمد الأمين بن محمد الكانمي إلى الفقيه الناسك السالك رفيع النسب والحسب محبنا العالم أحمد القادري، السلام الأتم ورحمة الله تعالى وبركاته، أما بعد..

فقد وقفت على ما في كتابك من طلبك منا ما ليس في وسعنا ولا هو من مبلغ علمنا وفهمنا فتعلم أيها الأخ الناصح وفقنا الله وإياك بكل قول وعمل

صالح أن الله سبحانه وتعالى قسم على عباده الأعمال كما قسم الأرزاق والآجال، وفتح لبعض عباده في الصلاة وللبعض في الصدقات والصيام وللبعض في الأدعية والأذكار وللبعض في بث العلوم ونشرها إلى غير ذلك من أنواع القربات وأجناس الطاعات[1].

وحبب لكل ما قسمه له ولم يجعل سبحانه نيتنا متوجهة للتأليف والتصنيف مع عدم أهليتنا لذلك وعدم احتياج الناس إلينا.

فجزى الله الأئمة سلفًا وخلفًا خير جزاء ما تركوا مما ذكرته شيئًا إلا بينوه ولا مشكلاً أو مبهمًا إلا فتحوه وأوضحوه حتى صار لا يصعب تحصيل ذلك لمن احتاج إليه ولا يتعسر وجوده إليه استنبطوا علوم الشريعة وبينوا فروعها وأصولها وتكلموا في علم الحقيقة وأوضحوا معرفتها وسلوكها فجمعوا بينه وبين الشريعة فاتفق واتحد مبدؤها ومقصدها فعليك بالاقتباس من ذلك مما وقفت به من كتب الأئمة الأعلام، وممن اجتمعت به من صلحاء وعلماء الإسلام، ففي ذلك ما يغنيك به عن طلب الاستفادة ممن أعياه الحيران وأصرعته الهموم وأحاطت به الشواغل فلا ينفك في وقت وأوان ولا يجد فساحة للمطالعة فضلاً عن إبداء تأليف وتدوين ديوان.

أما ما ذكرت من تلقيك عن شيخك عثمان بن فودي فأنا لألتفت إلى ما نقل عنه ولا ننظر في تواليفه على وجه الاستفادة ولا نراها شيئًا يعتنى به بعد ما بدأ به من تكفير أهل أوطاننا واستباحة عيالنا ودمائنا.

---

(١) انظر: صفوة التصوف لطاهر المقدسي ص(١٨).

فإن تواليفهم وإن كانت محشوة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وكلام الحكماء والصوفية فإنما يستدل على ما يوافق قصده وهواه وذلك مستيسر لمن أراد الاستدلال على ما أراده وتواخاه إن كان مقصده الظهور، والغلبة ولم يراقب الله عز وجل في سره وعلنه ويتقه ويخشاه، وقد روي عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ فقال: «**إنا لله وإنا إليه راجعون فقلت**: إنا لله وإنا إليه راجعون فلماذا يا رسول الله؟ قال: **إن جبريل قد أتاني فقال**: إنا لله وإنا إليه راجعون فقلت نعم **إنا لله وإنا إليه راجعون فلماذا يا جبريل فقال**: إن أمتك مفتونة بعدك بقليل لا بكثير فقلت فتنة كفر أم فتنة ضلالة؟ فقال: كل سيكون. فقلت: **كيف يكفرون ويضلون وفيهم كتاب الله؟**» هذا معنى الحديث ولعل الاختلاف في بعض الألفاظ لأن وقوفي عليه في موضعه طال العهد به.

أما المعنى فلا شك أنه هذا.

ومن هذا الباب استدلال الفلانيين على ما زعموا من الدعاوى الباطلة والأقاويل الواهية التي لا يرتضيها إلا من كان على شاكلتهم أعاذنا الله مما ابتلاهم به وحفظ علينا ديننا وإيماننا بجاه أشرف خلقه وأكرم رسله سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. اهـ.

قلت: أوردنا هذه الرسالةالتي عثرنا عليها من حفيد الشيخ أحمد القادري محمد بشير الفلاني بمدينة (مايرنو) قرب شيخ طلحة مدينة (سنار القديمة) بالسودان المصرى (١٩٥٠م) وآخر أن الخط هو خط الحاج أمين الكانمي نفسه.

وقد سجل السلطان محمد بللو في كتابه (إنفاق الميسور) ما بين الكانمي وبين أبناء فودي من رسائل كلها مناظرات ومناقشات ومساجلات دامت عشر سنوات قبل قيام الحرب بين الطرفين فكانت حرب السنان بعد حرب البنان. فلا عجب إذا قرأنا أثار ذلك من هذه الرسالة.

النموذج الثالث للعصر الفلاني تزيين الورقات

في نظم ما لعبد الله بن فودي من الأبيات

قال في أوله:

الحمد لله أهل الحمد والثناء، ذي العظمة والكبرياء والسناء وصلى الله على سيدنا محمد المحمود في الأرض والسماء وعلى آله وصحبه الكرماء أما بعد:

فيقول الفقير إلى الله عبد الله بن محمد بن عثمان التورودي نبا الحوسي إقليمًا وبلدًا، قد خطر لى في القلب أن أجمع بعض الأبيات التي نظمتها في مدح الشيوخ ومرثيتهم وشكر النعم التي أنعم الله علينا بها قبل هجرتنا وفى وقائع وقعت لنا في الجهاد بعد الهجرة مع تفسير ما سيشكل على الطلاب من لغاتها وتبيين سبب نظم كل قصيدة منها، وفي ذلك بيان أكثر أحوالنا في ابتداء الأمر إلى انتهائه لينتفع بها من أرادها بالاتعاظ بمواعظها والاعتبار بما حصل لنا في تلك الأحوال من نعم الله للشكر عليها وذلك مقصود الكتاب والله الموفق للصواب وسميته (تزيين الورقات بجمع ما لي من الأبيات) وفيها من فنون العرب الأمثال والحكم، والوصايا، والوقائع، والمدائح، والتهنئة، والمرثية، والافتخار وغير ذلك.

وإنما قلت بعض ما لي من الأبيات لإخراج ما نظمت من الكتب في العلوم ومدح النبي ﷺ وذلك مشهور، وكذلك ما لم يحضر لي وقت التأليف منها وما لا يلتفت إليه من الأبيات التي نظمتها في حال الصبا بالعجمية والعربية لأن الشعر للشاعر المطبوع عليه كاللغا في صدر المصدور لا يستريح إلا إذا غماه كما قال الشافعي رضى الله عنه:

والشاعر المنطيق أسود سالخ　　　والشعر منه لعابه ومجاجه

وقد كنت قديمًا أنظم أبياتًا كثيرة فأتركها وأجعلها نسيًا منسيّاً لا أقيدها ولا أخبر بها أحدًا لعلمي أن لا طائل تحتها غالبًا في الدين وعدم علمي بالعربية والعروض.

وقد علمت أن جميع ما نظمته مضحكة للأدباء وسقطة الوعاء لكن لكل ساقط لاقط.

قلت: كان عبد الله بن فودي عنوانًا كاملاً لأدباء العصر الفلاني وعلماءه وفقهائه بل كان نموذجًا عاليًا لأدباء نيجيريا وعلماءها لذلك كان الناس يلقبونه بنادرة الزمان وعلاَّمة السودان، وكتابه تزيين الورقات هو مرآته الصادقة للناحية الأدبية في شعره ونثره، والواقف على أشعاره هذه لا يتردّد في الاعتماد أن عبد الله بن فودي قد تأثر كثيراً بالحسن اليوسي صاحب الدالية في مدحه للشيخ ناصر الدرعي في داليته فاقتدى به عبد الله في مدح شيخه جبريل في قصيدته المسماة (عج).

ذلك لنربط به قولنا إن الأشعار الجاهلية والمقامات والمؤثرات الأدبية في غرب أفريقيا.

وأبرز الشخصيات المشار إليهم بالبنان في العصر الفلاني هم :

الشيخ عثمان بن فودي له من المؤلفات أكثر من سبعين كتابًا .

والشيخ عبد الله بن فودي نادرة الزمان وعلاَّمة السودان لقد ترك أكثر من مئتي كتاب في مختلف الفنون ، والشيخ راجي بن صاحب الرماد ترك نحو خمسين كتابًا .

والشيخ محمد الأمين الكانمي البرنوي .

والشيخ مصطفى الماهر البرنوي .

والشيخ الوزير غطاط صاحب الكشف والبيان .

الشيخ أبو بكر كبير علماء الورن المتوفى ١٩٠٠م .

والشيخ عبد القادر بن مصطفى .

العصر الإنكليزي
يبدأ من مطلع القرن
العشرين الميلادي إلى اليوم

لقد ارتفع الأدب بهذا القرن في بلاد العرب . حتى كاد يفوق جميع عصور الأدب في الإسلام فاق العصر الإنكليزي الأموى والعباسي اللذين يعتبران أزهى العصور الأدبية في البلدان الإسلامية ، أما في نيجيريا فانخفض الأدب العربى إلا قليلاً .

لقد علمت أن التعليم العربى هو التعليم الرسمي ولما أصبح الإنكليز

مسيطرين على البلاد أصبحت لغتهم رسمية، وأصبح من يعرفها سيداً مطاعًا، فطلع سعدهم وغرب سعد غيرهم وكسدت تجارته حين ربحت تجارتهم فانساق الناس وراء لغتهم وأدبهم.

على أن الإنكليز لما أنعشوا لغتهم في نيجيريا وجميع مستعمراتهم في غرب أفريقيا اعترفوا بالحقيقةالتي لا جدال فيها وهي حاجة أهل البلاد إلى العربية ففتحوا لها قسم الاستشراق في معهد الدراسات الشرقية بجامعة لندن وتعلمها عدد منهم وأجازوا تعلمها لأبناء نيجيريا وغيرهم وتخرج في هذا المعهد عدد كبير جمعوا بين الثقافتين العربية والإنجليزية.

أما بقية السلف الذين عاشوا في أول العصر الإنكليزي ووسطه ولم يجمعوا بين الثقافتين فهم كالشيخ محمد البيغوري الإلوري المتوفى ١٩١٣م.

والشيخ أحمد بن أبى بكر الفلاني الإلوري وهو ممن تعلم الإنكليزية خارج المدارس.

والقاضى إبراهيم شيخ علماء كانو ناظم المثل السائر في ٥٠٠٠ بيت وشارح الفحول الستة بما لم يسبق إليه، والحاج محمد الوزير البرناوي المتوفى ١٩٤٤م.

والشيخ آدم نماجي الكنوي تعلم الإنكليزية خارج المدرسة في لاغوس.

والشيخ إبراهيم بن أحمد.

والشيخ محمد ثاني إمام جامع كانو.

والشيخ مصطفى قاضى بج .

والشيخ محمد ناصر الكبرى .

والشيخ أحمد التجاني عثمان البربري .

كلهم أخذوا بقسط وافر من الأدب العربي .

والشيخ محمود بن محمد إمام باوتشي وعليه تخرج الدكتور أبو بكر والأستاذ أحمد عربي نزيل جوس والشيخ ماجي إسحاق الزكزكي .

والوزير جنيد بن غطاط السكتاوي عليه تخرج الشيخ أبو بكر غومي الشهير .

والحاج محمد إبراهيم النفاوي اليرباوي الإلوري أكبر تلاميذ أحمد الرفاعي أندا صلاتي والشيخ أحمد الرفاعي بللو والحاج أحمد أويلنجي اليورباوي .

والحاج مدثر عبد السلام ومرتضى عبد السلام من الإبادانيين وأمثالهم ممن رزقوا الإجادة في الإنشاد العربي بعصرنا الحاضر .

ولكنهما تركا الشعر لدخولهما في الحياة المدنية الاجتماعية .

لقد تولى الحاج مدثر عبد السلام على إمامة مدينة أبادن وعاش ثلاث سنوات ثم توفى إلى رحمة الله ، وبقي أخوه على قيد الحياة إلى وقت الطبعة الثانية من هذه الكراسة .

●●●

ارتقاء الأدب وانحطاطه
في مختلف العصور

الأدب مثله كمثل زرع يزكو وينمو بماء وهواء وأجواء تتبدل وتتغير مع مختلف المواسم فيزدهر الزرع حينا أو ينزوي ويذبل طوراً حسب ملاءمته لما يكتنفه من تلك المواسم ويختلف الباحثون عن أسباب ارتفاع الأدب واستفافه أو عن دواعي ارتقاءه وانحطاطه في عصر من عصوره المختلفة.

ومنهم من ينسب السبب إلى العصبية القبلية كما في حالة الشعر في العصر الجاهلي حيث كانت القبيلة تفتخر بنبوغ شاعر بين أبناءها فيقدم النابغة قبيلته إلى المباراة والمنافسة في سوق عكاظ أو ذي المجنة أو ذي المجاز أو سوق منى قرب عرفات.

فإذا نبغ شاعر اجتمعت العشائر وأقامت الولائم كالعرائس وتغنى الفتيات بقصيدة الشاعر فيتنقلها الركبان في البلدان، أو يكتب بماء الذهب في رق الغزال وتعلق على الكعبة وتسمى المعلقة، ومنهم من ينسب السبب إلى عظمة من يعزى إليه الأدب، وإذا مدح الشاعر ملكاً عظيماً ونال بهذا المدح حظوة كبيرة حازت القصيدة خلوداً ما دام الممدوح على قيد الحياة أو ما دامت دولته قائمة أو موروثة عنها أو أنه قد دخل في ذمة التاريخ.

وهذا السبب الأخير أقوى أسباب رقي الأدب نثراً ونظماً.

لأن الخلفاء والأمراء هم الذين أنشأوا دواوين ونصبوا عليها كُتَّاب

الرسائل الذين يملكون زمام البلاغة في الإنشاء كعبد الله بن المقفع وعبد الحميد، وعلى أيدي هؤلاء الكُتّاب بلغت الكتابة الأدبية ذروتها وقوتها وقمتها في العصر الأموي والعصر العباسي.

وفي العصر العباسي كان يحمل كاتب الدولة لقب الوزارة وصار هو القائم على أمر الرسائل وكان يسمى وزيراً كما كان على رأس الأمر يحيى البرمكي وأبناؤه (البرامكة) حتى نكبوا على يد هارون الرشيد بن أبي جعفر العباسي.

أما الشعر فعلاوة على ما يكون من تقديم الخلفاء والأمراء عطاياهم وهباتهم للشعراء الذين يشيدون بأمجادهم.

فإن في بلاطهم منتدى لنقد الشعر في مناقشة الشعراء في ألفاظ قصائدهم ومعانيها كما كان ذلك في العصر الأموي وطرفًا من العصر العباسي الأول.

مثال ذلك ما كان بين جرير والفرزدق والأخطل على بلاط خلفاء بني أمية، وقد حظي هؤلاء الشعراء من أولئك الخلفاء حظوة كثيرة بسبب ما يجيده كل منهم في الأغراض وقد جمعهم شاعر بقوله:

ذهب الفرزدق بالفخار وإنما　　　حلو الكلام ومره لجرير

ولقد هجا فامض أخطل تغلب　　　وحوى اللهى بمديحه المشهور

ويرى النقاد أن أكثر شعراء العصر الأموي كانوا أكثر تقليداً لشعراء العصر الجاهلي كالوقوف على الأطلال والخصائص اللفظية والغزل

والهجاء والرثاء. وبالجملة فإن خلفاء بني أمية قد أغدقوا الأموال على شعراء بلاطهم وسمعوا نقائض الشعراء فيما بينهم حتى صار الخلفاء أنفسهم نقاداً لا يقبلون من الشاعر ما فيه عيب ونقص في الألفاظ والمعاني والتراكيب.

ارتقاء الأدب وانحطاطه

في عصرنا الحاضر

لقد حدث لي في الخمسينيات أن حضرت منتدى علمياً في جامعة إبادن بنيجيريا وفيه عدد ممن يهتمون بالمسائل الأدبية فجرت بنا سفينة البحث إلى قوة الأدب أو ضعفه في هذا العصر الحاضر.

فقلت لصاحبي الذي يحاورني إن الأدب العربي قد ارتفع في هذا العصر الحاضر وبلغ شأواً لم يبلغه في العصور الأدبية السابقة.

فاستغرب من هذا القول وقال في تأثر شديد من الانفعال:

أين أنت من الأدب في العصر الأموي والعباسي حيث كان الأدب في أزهى عصوره وأرقى دهوره؟

فأجبته برباط الجأش ولباقة الأسلوب قائلاً:

إن الأدب قد ارتقى اليوم أكثر من ارتقائه في العصور القديمة إذا نظرنا الأدب من سائر النواحي لا من ناحية واحدة.

والحمد لله على أننا خرجنا من الموضوع وانتقلنا إلى موضوع آخر

لا غالب ولا مغلوب ولا حقد ولا حمد وأسررت الموضوع في نفسي منذ ذلك الحين إلى أن ساقني القدر أخيراً إلى ما كتبه الشيخ محمد الغزالي في كتاب (مشكلات في طريق الحياة الإسلامية ص(٨١)) فسررت بذلك كما كان يسر سيدنا عمر بن الخطاب حين يوافق رأيه الوحي السماوي حتى عد ذلك من فضائله.

قال الشيخ الغزالي:

(منذ خمسين سنة انتعشت العربية بنهضة أدبية في شعرها ونثرها أشبهت أو أربت على تألقها القديم في العصر العباسي الأول ولم يحدث في تاريخنا الأدبي أن تعاصر فيه مجموعة من العمالقة كما حدث ذلك خلال القرن الماضي.

ففي ميدان النثر ظهر الرافعي والعقاد وأحمد أمين وزكي مبارك وطه حسين وأحمد حسن الزيات وشكيب أرسلان ومصطفى المنفلوطي.

وفي ميدان الأدب الديني وجد فقهاء ودعاة ومفكرون مثل محمد رشيد رضا ومحمد عبده ومحمد فريد وجدي وجمال القاسمي.

وفي ميدان الشعر نبغ أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وخليل مطران والزهاوي والرصافي واليازجي والبستاني والبارودي وأمثالهم.

(قلت) كنت على هذا الاعتقاد متردداً بين إثباته ونفيه فلم أجد من الأدباء من قال به حتى وجدت ذلك من الكاتب الإسلامي القدير الشيخ محمد الغزالي فاطمأن قلبي على أن الأدب قد ارتفع في أول القرن العشرين في الكيفية والكمية.

أما السبب في ذلك فهوا استقلال الأدب من نير الملوك والقبائل .

لم يعد الكاتب يرتزق بكتابة الرسائل للملوك والأمراء في دواوينهم، ولم يك الكاتب أو الشاعر يعيش على رحمة الملوك أو على فتات موائدهم، أو يعيش على ما يجده من أجر أو ثواب قصيدة مدح بها ملك أو أمير .

وإنما صارت الكتابة في الجرائد والمجلات صناعة يحترف بها الكاتب لخدمة الأمة والوطن في آمالها وآلامها، وإن مدح ملكًا أو وزيرًا أو أميرًا كان له ذلك أمرًا ثانويّاً .

كما صار الشاعر يرتجل أو ينظم قصائده استجابة لنداء العاطفة أو لدعوة قومه إلى القيام بواجب من الواجبات أو استرداد حق من الحقوق .

ولقد كان الأدب يتأرجح بين الرواج والكساد مما جعل أكثر الأدباء يشكون بؤسهم ويكادون يندمون على سلوكهم منهج الأدب في الحياة .

ولقد كان ابن دريد والطغرائي وابن مالك الطائي صاحب الألفية كلهم كانوا يشكون من تقلب الدهر عليهم وتبدل أحوالهم من خير إلى شر، أو من استمرار الشر عليهم إما بسقوط ما كانوا قد اعتمدوا عليه من الدول أو الملوك أو الأمراء والأثرياء وإما بسبب آخر .

وهكذا يتقلب الأديب الناثر أو الشاعر طول حياته .

كان من شعراء العصر العباسي الأول الشاعر أبو الطيب المتنبى فقد صرح بذلك حتى ولو كان في حالة انفعاله لذم الكافور الأخشيدي حيث قال :

إنما الناس بالملوك ولا يفلح عرب مليكهم عجم

لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهود لهم ولا ذمم

فكيف يتذوقون حلاوة البلاغة العربية وهم قوم أعاجم.

وعاش الحريري صاحب المقامات في العصر العباسي الثاني وكان من أعظم أدباء ذلك العصر نظمًا ونثرًا ولكنه مع ذلك ظل يشكو كساد الأدب بما يعبر عن ذلك في المقامة التاسعة:

فاليوم من يعلق الرجاء به أكسد شيء في سوقة الأدب

لا عرض أبنائه يصان ولا يرقب فيهم إلا ولا نسب

كأنهم في عراصهم جِيَف يبعد من نتنها ويجتنب

وعلى جميع ما ذكرنا يقاس ارتقاء الأدب العربي في غرب أفريقيا ويقاس انحطاطه.

ومع هذا وذاك ينبغي تقييم ما أنتجته قرائح علمائنا العجم من الأدب العربي بين ملوك عجم مثل غرب أفريقيا وسواء كان ملوكها وأمراؤها مسلمين لهم إلمام بالأدب أم ليسوا كذلك وسواء ما كان من العصر البربري أو الونغري أو العصر المغيلي أو العصر الفلاني.

أما حالة الأدب في العصر الحديث في نيجيريا وغرب أفريقيا على خلاف حالته في بلاد العرب اليوم إذ وجد الدولة الإسلامية كما في الماضي، وقد جاء الأدب الإنكليزي والفرنسي وطغى على الأدب العربي في كل مكان.

فلا توجد الجرائد ولا المجلات ولا الإذاعات المحلية حيث يستطيع الأديب الوطني أن يسوق بضاعته أو أن يروج بلاغته.

ولكن الأمر الذي لا خلاف فيه، هو ارتقاء البحث العلمي والنقد الفني الذي تجلى في رحاب الجامعات الحديثة حيث أتاحوا الفرص لمن يريد أن يكتب في موضوع تاريخي أو علمي للحصول على درجات علمية من الشهادة العالية أو العالمية أو الدكتوراه فحلت هذه محل ذلك المجال في الأدب في النظم والنثر.

نموذج من أساليب أدباء

العصر الإنكليزي

نأخذ أسلوب الشيخ آدم نماجي الكنوي المولود ١٣٢٠هـ ١٩١٠م كمثال لهذا العصر وقد كان له كتابات في التصوف والحكمة والفلك والجغرافيا ولكننا نكتفي بما جاء في كتابه الاكتشاف المفيد ونقول:

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

يقول الفقير لرحمة ربه اللطيف الستار آدم العطار بن محمد العربي ابن آدم بن الإمام محمد الفلكي القادري الكنوني. كان الله له:

ولقد عاهدت بعض الإخوان والأصحاب على تاريخ نيجيريتين الشمالية والجنوبية منذ أعوام والآن يسر الله لي وخطر لي خاطر إلى ذلك فاستخرت

الله تعالى في ذلك إنه لطيف حكيم ولقد طلبت المواد ولم أجدها لأني كنت في حصر عظيم من المواد اللهم إلا بعض فوائد التقطتها من كتاب إنفاق الميسور لأمير المؤمنين محمد بللو رحمه الله، وبعضها من مجموع الشيخ عبد القادر بن المصطفى سبط الشيخ رحم الله الجميع، وأخذت البعض من بعض كتب التواريخ النيجيرية الإنكليزية.

ومعلوم بأن التاريخ كان مهجوراً في هذه الأراضي فلم أجد ما أستعين به في حندس هذه الظلمة سوى ما نستعمل من الجغرافيا ونجمع مما سألت الرجال وباحثت ودققت وركبت السفائن البحرية والقطارات على السكة الحديدية والأتومبيلات استطلاعًا للأخبار واقتناصًا للتواريخ.

وممن سألت العالم بَابَهْ بن إسماعيل الكنوي وغيره من السيارات والمسافرين، والعالم يوسف النفاوي، والعالم أحمد يرباوي وحسين ابن علي الكنوي وغيرهم كثيرون وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

وأطلب من الناظر فيه أن يسامحني هفواتي اللفظية أو المعنوية بل جميع هفواتي في نسبة تلك العلوم التي هى أنور من الكهرباء في ليلة ظلماء.

(فصل) أذكر فيه إن شاء الله موادي العلمية الظاهرية إذ أن بعض الناس يتطاول في معرفة ذلك ومن علمائي: الشيخ محمد المصطفى الخياط الفندكي، ختمت منه القرآن وأنا ابن عشر سنين وأخذت منه النحو أولاً قرأت منه (بسم الله ما هو) والأجروم وملحة الإعراب وألفية ابن مالك

بشرح ابن عقيل، وقرأت عليه جملة قصائد لم يحضرنى الآن تعيين أسمائها، وقرأت عليه رسالة القيروانى بشرح الثمر الداني مرتين، وتحفة الحكام مرة وقواعد الحساب ومختصر الشيخ خليل ومختار الشعر الجاهلي ومقامات الحريري وخلاف ذلك مما لم يحضرني الآن، والشيخ عباس الكتاغمي والشيخ محمد قاضي كتاغم، قرأت عليهما اللغة والإعراب إذ تعيين أسماء الكتاب يتعسر عليّ الآن.

ومنهم الشيخ محمد الثاني النائب قرأت عليه الفريدة، وحضرت الشيخ عبد الله قرأت عليه الكافي في علمي العروض والقوافي. والشيخ عبد الله الأغدسي قرأت عليه المختصر والأحاديث وسمعت مصباح المنير من الشيخ القاضي إبراهيم.

وأما مشائخي من العرب فكثير قرأت عليهم جملة الفنون منهم سيدي الشيخ محمد المحمود الولي العارف بالله ذكرت مناقبه في كتابي (ترقيق ما قسا بذكر أولياء حوسا) ومثله الشيخ عبد الله المغربي، وسيدى محمد الناجي المغربي وسيدي أحمد الحلواني المغربي والشيخ أحمد القدامي والشيخ محمود الطرابلسي المصري والشيخ الشريف عبد الله المغربي ومنهم أخذت التصوف والشيخ سعد بن أحمد الغدامسي وغيرهم كثيرون لا سعة لذكر أسمائهم هنا فهاك أيها الأخ المحب بعض أسماء مشائخي التي تتطلع إلى سماع أسمائهم ولتعلم أيضًا بأنى اجتمعت بكثير من الأولياء والحمد لله وكل منهم يدعو لي بالخير، ثم إني مكثت سنة كاملة أدعو الله تعالى أن يفتح لي في العلوم ثم إني خلوت عدة أيام في الزاوية القادرية سنة ألف

وثلثمائة وثلاث وأربعين، وفي خلالها انفتحت لي من فضل الله أبواب العلوم وأيقنت هناك أن لا يكشف لأحد في جلوته إلا إذا جذب أو بوغت.

فهناك ضالتك التي تنشد والحمد لله رب العالمين.

النموذج الثاني من العصر الإنكليزي

من الدكتور علي أبو بكر هو من أوائل الذين جمعوا بين الثقافة العربية والثقافة الإنكليزية ولد في بيت علم وشرف وأدب من بيوت علماء هوسا وتربى تربية أدبية عالية ثم التحق بالمدارس النظامية الحديثة ومنها بدأ في تعلم العربية والإنكليزية إلى أن حصل على درجة الدكتوراه بكتابه (الثقافة العربية في نيجيريا) وهو كتاب فريد من نوعه وفى أسلوب تتجلى ثقافته الناضجة من جميع الجهات اسمعه يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، إن أصل هذا الكتاب رسالة للدكتوراه قدمتها في نوفمبر ١٩٦٧م في نهاية دراساتي العليا التي دامت خمس سنوات بكلية الآداب جامعة القاهرة.

وكان المشرف على الرسالة هو الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهواني وهوالذى اقترح عليّ هذا الموضوع القيم الذي يتصل بوطني العزيز المفدى وهو (الثقافة العربية في نيجيريا) فكم أنا مدين لسيادته على هذا الاقتراح الموافق الذي أتاح لي فرصة مكنتنى من معرفة أشياء كثيرة هامة تتصل بهذه الثقافة.

ويسرني وأى سرور أن أصرح بأن الرسالة قد نالت أعلى درجة تمنحها الجامعة وهي (الامتياز بمرتبة الشرف الأولى) وقد كنت قدمت لنفس الجامعة

رسالة للماجستير في يونيو ١٩٦٥م عنوانها (فن السيرة في الأدب الحديث) أرجو أن تطبع هي الأخرى قريبًا إن شاء الله . ومما هو جدير بالذكر أن معظم الذين كتبوا عن نيجيريا إنما كتبوا عنها من الناحية التاريخية وهؤلاء المؤرخون كثيرون أهمهم بيرنز، وبارث، وبيج، ومُرريلْ، ونفن، وهوغبنْ وهُوجكن، وليس من بين هؤلاء من تعرض للناحيةِ الثقافية غير الأخير الذي تحدث عن المراسلات الدينية التي تبادلها الشيخ عثمان بن فودي والشيخ محمد الأمين الكانمي، غير أنه يوجد بعض ترجمات للمخطوطات العربية إلى الإنكليزية مثل ترجمة أرانث لكتاب -إنفاق الميسور في بلاد التكرور- لمحمد بللو إلى الإنجليزية وقد قام به منذ أكثر من ثلاثين سنة والواقع أنه لا يصح إطلاق اسم الترجمة على عمله هذا وإنما يصح أن يطلق عليه اسم ترجمة الترجمة كما سماه هو بنفسه لأنه لم يكن يعرف اللغة العربية وإنما كان أحد العلماء يترجم له العربية إلى الهاوسوية التي كان يفهمها ثم يقوم بترجمة الهوساوية إلى الإنكليزية ولا يخفى ما في ذلك من عدم الدقة .

وهناك أيضًا ترجمة هسكت لكتاب "تزيين الورقات" للشيخ عبد الله ابن فودي إلى الإنكليزية ومن الأعمال الثقافية أيضًا ما قام به أستاذ إسماعيل بلوغن من إعداد رسالة للدكتوراه في جامعة لندن .

والرسالة عبارة عن تحرير كتاب «إحياء السنة وإخماد البدعة» للشيخ عثمان بن فودي وكذلك كتب أستاذ محمد فتحي السوداني المحاضر في قسم اللغة العربية بجامعة إبادن كتابًا عن تاريخ الشيخ عثمان بن فودي بالعربية .

فمن هنا يتضح لنا أنه لم يتعرض أحد من هؤلاء إلى الثقافة العربية بصورة عامة وشاملة قبلي، ومن أجل ذلك فلي كل الحق في أن أدعي أن هذا البحث هو الأول من نوعه وعلى الرغم من أنه يتناول الحياة الثقافية في نيجيريا منذ أوائل القرن الثامن عشر إلى سنة ١٩٦٠م عام استقلال البلاد فإنه يتناول أيضًا الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية مما يجعله بحثًا أرجو الله أن يكون نافعًا يؤدي الغرض المقصود منه وهو نشر الثقافة العربية في نيجيريا.

أما المشقة التي تكبدتها فقد كانت كبيرة بحق، فقد حملني هذا البحث على السفر من القاهرة إلى نيجيريا حيث قضيت ما يربو عن سنة قطعت خلالها أكثر من خمسة عشر ألف ميل جبت في أنحائها بين مدنها وقراها فلم أبق عالـمًا سنياً كان أو غيره قادرياً أو تجانياً سنوسياً أو معهدياً إلا وقد اتصلت به، وسألت عن تاريخه وتاريخ معهده ومؤسسه والعلوم التي يدرسها وعدد طلبته والكتب التي وضعها والعلماء الذين تلقى عنهم مؤلفاتهم هذا فضلاً عن التدريس الذي كنت أقوم به في قسم اللغة العربية بكلية عبد الله بايرو وبالأمور الإداريةالتي تتصل به.

وكذلك لم أترك مكتبة عربية من مكتبات نيجيريا سواء كانت للمطبوعات أو للمخطوطات إلا دخلتها وفحصتها واستفدت بمحتوياتها في تدوين هذا البحث الذي هو ثمرة جهد وصبر ومثابرة تعلمتها من أستاذي الكبير الدكتور عبد العزيز الأهواني الذي أكن له كل تقدير وثناء على ما بذله

معي من وقته الثمين وتوصياته وتوجيهاته الشديدة التي كان لها أعظم الأثر في أن أخرج للناس بحثًا يتسم بالموضوعية والأمانة العلمية .

ولا يسعنى أن أختم هذه المقدمة دون أن أقدم شكرى لأمراء نيجيريا وعلمائها الذين ساعدوني كثيراً في الحصول على مادة هذا البحث ، ومع أنه يتعذر عليَّ أن أذكر أسماء كل من اتصلت بهم في هذه المقدمة القصيرة لكثرتهم إلا إنني أجده لزامًا علىَّ أن أخص بالشكر والتقدير حماة الإسلام التالي ذكرهم وهم أمير كانو الحاج آدو بايرو الذي يشرفني أن أجعل هذا الكتاب إهداء إليه وأمير غوند الحاج هارون ، وأمير بوثي معلم آدم جمبا فجزاهم الله جميعًا عن الإسلام خيراً وأجزل لهم أجراً ، فإن لساني لقاصر عن شكرهم .

وكذلك أقدم شكري وامتناني للمرحوم الحاج محمد انغلروما سفير نيجيريا في الجمهورية العربية المتحدة سابقًا ولوزير سوكوتو الحاج جنيد ومراقن سوكوتو الحاج أحمد طن بابا والحاج إبراهيم أخي أمير غوند ، فقد تفضل بتقديم جميع كتب الشيخ عبد الله النادرة لي ووالي غوند الأديب محمد سنبو ، والأستاذ الحاج كواسو في غوند أيضًا ، والأستاذ الحاج محمد الناصر مصطفى ، والسيد عثمان الطيب ، والحاج محمد الناصر كبرى ، والمرحوم الحاج أحمد عثمان التجاني ، والحاج أمين كانو ، والحاج حسين آدم ، وقاضي قضاة كشنا سابقًا الحاج إبراهيم مودي ، والحاج محمود عمر ، والأستاذين عثمان وأمين الآدماويين .

علما بأنه قد ورد ذكر الآخرين الذين اتصلت بهم في غصون رسالتي وبالتالي يظهر فضلهم جميعًا ناطقة به رسالتي شاهدة على فضلهم وختامًا فإني أقدم هذا الكتاب لطلاب العلم في نيجيريا راجيًا أن يلقي عليهم الضوء على كل ما يتصل بالإسلام واللغة العربية بنيجيريا في خلال مائتي عام الماضية، ويعطيهم فكرة كاملة فيما قام به علماؤنا المتقدمون والمتأخرون والمعاصرون من نشاط جبار في خدمة الدين ونشر العلم والفضيلة ليقتدوا بهم ويقفوا على آثارهم فخورين بهذا التراث والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب.

علي أبو بكر

لا أرى بأسًا إذا اعتبرت أسلوبي نموذجًا ضمن أساليب الكتابة العربية في العصر الإنكليزي لأن كتاباتي خصوصًا موجز تاريخ نيجيريا قد ظهر في أوائل الستينيات وسارت بها الركبان في البلدان ولقد كان ابن الأثير في كتابه المثل السائر يذكر أسلوبه كنموذج عال في البلاغة ولم ير بأسًا على نفسه في ذلك.

●●●

من موجز التاريخ

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على من لا نبي بعده..

لقد أثبت الحكماء والشعراء الأولون فوائد السفر وبركاته للناس عمومًا، وأثبته العلامة ابن خلدون لطالبي العلم خصوصًا لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشائخ ومباشرة الرجال وكلما سافر عاقل أو طالب علم صدق ما أثبته الحكماء والشعراء وأيده ابن خلدون فيلسوف التاريخ والاجتماع.

في سنة ١٩٤٦م عندما كتب الله لي السفر إلى الحجاز (المملكة العربية السعودية) لتأدية فريضة الحج ومررت في طريقي بالسودان ومصر (الجمهورية العربية المتحدة) وكان تساؤل العلماء الذين اتصلت بهم عن أحوال بلادي وتاريخها أهم ما استرعى انتباهي وأيقظ شعوري بالنقص الذي يعيرنا من عدم الاهتمام بتاريخ بلادنا، فآليت على نفسي أن أبحث عن هذا التاريخ وأن أملأ ذلك الفراغ بكتاب عربي ينطق في ذلك بالحق.

فمَنَّ الله عليَّ بإخراج كتابي (الإسلام في نيجيريا) إلى الناس عام ١٩٥٠م فوعدت القراء بإخراج كتاب آخر تحت عنوان (قاموس نيجيريا) ثم جرت الرياح بسفينتي إلى لجج لإرشاد التعليم وإلى إنشاء مركز التعليم العربي ١٩٥٢م وكان لهذا المركز من التَّبعات والمسؤوليات ما تنوء بالعصبة أولي القوة، فشغلت بالتعليم عن التأليفَ ومع ذلك لم أثن عنان عزمي ولم أزل أعلل النفس على طول الزمن بالعثور على المخطوطات العربية التي

خلفها علماؤنا الأقدمون لأقتبس منها فلم أجد غير كتب معدودة، لا تشفي الغليل ولا تثلج الصدور مما يدل على عدم اعتناء أسلافنا بكتابة التاريخ، ومؤلفات أبناء فودي خير ما كتب في هذا الموضوع وأهم مراجع التاريخ لهذه البلاد، والذى ينظر في مؤلفاتهم لا يصدق الزعم القائل بأن الفلانيين الفودويين دمروا الوثائق التاريخية أثناء حروبهم للبلاد الهوسوية ولو صح أنهم أدركوا تلك الوثائق لنقلوها إلى مؤلفاتهم ولنسبوها إلى أنفسهم ولم نخسر غير أسماء الأوائل على نحو ما يقال في الرئيس ابن سينا في مكتبة أمير خراسان.

أجل: إن التبعات المدرسية وعدم توفر الأسباب والمراجع جعلني متردداً بين إنجاز وعدي والرجوع عنه، كيف أزج بنفسي في الغابات التي يضل بها الخريت أو في الغمار الذي يكتفي بالسباحة في ساحله الملاحون فبذلك وددت أن أسحب الموضوع لولا أني آثرت أن أساهم في فتح الباب لقراء العربية داخل هذه البلاد وخارجها خدمة للإسلام والأدب العربي والوطن.

فأكدت العزم على المضي دون تردد وانتكاس، فراجعت لذلك ما تيسر من الكتب العربية والإنكليزية التي تمس الموضوع وانتقيت السمين من الغث والمعتمد من الضعيف والناضج من الفج.

واستطردت إلى ما لابد منه لهذا التاريخ من أحداث بدأت بأفريقيا الشمالية واستفضت منها على أفريقيا الغربية بما فيها الجزء المعروف اليوم بنيجيريا فإذا أنا وقفت في صلب التاريخ فالفضل في ذلك يعود إلى المراجع

والمصادر التي عولت عليها وإن أنا أصبت في نسج التأليف فرمية من غير رام، وإن جانبني الصواب فأنا معذور لأني سمعت أكبر أديب عربي يقول:

(إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابًا في يومه إلا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن ولو زيد كذا لكان يستحسن ولو قدم هذا لكان أفضل ولو ترك هذا لكان أجمل وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر).

فرحم الله امرءًا التمس لي عذرًا وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

٣٠ أكتوبر ١٩٦٠م

آدم عبد الله الإلوري

●●●

الشعر العربي في نيجيريا

الشعر أكبر مظهر تتجلى فيه براعة الأديب وجودة فكره التي يمتاز بها ولا يكون الأديب شاعراً إلا بكثرة حفظه للأشعار في مختلف البحور والأغراض والمبتدئ يبدأ الشعر بالتقليد أو الاقتباس أو السرقة حتى يستقيم شعره في اللفظ والمعنى إذا كان أدباء العرب يقولون إن الشعر العربي قد ضاع أكثره ولم يحفظ إلا أقله فما ظنك به في غير بلاد العرب مثل نيجيريا وأعذب الشعر أكذبه ولا يجيد الشعر إلا من أجاد تصوير الخيال حتى ولو كان مستحيلاً على نحو قول الشاعر:

لو علمنا بقدومكم لفرشنا ... مهج القلب أوسواد العيون

وشققنا من الجفون طريقًا ... ليكون الدخول بين الجفون

ما أحلى هذا الكلام ولكن ما أكذبه ومن لا يكذب في الشعر فقلما يحلو شعره فإن علماء نيجيريا قلما يسلكون هذا المسلك في أشعارهم وقصائدهم بل يقصدون الأغراض التي تدعوهم إلى الشعر وقد تأثروا كثيراً بالأشعار الجاهلية كما قلنا حتى كادت أشعار امرئ القيس تفسد أخلاقهم في التمشدق بما يستهجن من الفحش والبذاءة.

كما تأثروا كثيراً بأشعار المقامات الحريرية في التسول والاستجداء ولكن علماء الدين منهم قد تأففوا وتعففوا عن هذه الناحية وأكثروا من مسائل التعليم والوعظ والإرشاد والمديح والرثاء في قصائدهم وأشعارهم.

وسوف نأتي بنماذج من ذلك على سبيل المثال والاستعراض.

ولو شئنا أن نأتي بأمثلة الأشعار التي جادت بها قرائح علماءنا في مختلف العصور الأربعة العصر (البرنوي) (والونغري) (وعصر المغيلي) (والعصر الفلاني) كما فعلنا في النثر لضاق بنا المقام ولكننا نجمل الأمثلة في الأغراض الشعرية من مختلف العصور على غير ترتيب ومن أراد المزيد فلينتظر أم الكتاب التي أخرجنا منها هذا المصباح، أو فليجتهد هو لجمع ما تيسر لنفسه وذويه وبالله التوفيق.

القصائد الشاردة

إذا كان في الأدب العربي نتف من الأشعار قليلة يسمونها بالشوارد حيث لا يعرفون أربابها ولكنهم يروونها لكونها جيدة.

وفي نيجيريا أكداس ضخمة من القصائد الشاردة يتدارسها العلماء والتلاميذ على السواء من غير أن يعرفوا أصحابها. بل هناك كتب عديدة قيمة المبنى والمعنى لا تحمل أسماء مؤلفيها، ولربما يكون ذلك من تساهل الوراقين الناسخين الذين لا يبالون بهذه الأسماء، وأغلب الظن أن حذف الأسماء يقع عن رضا بعض المؤلفين الذين يخشون طعن الطاعنين، وقد حمل هذا التجهيل والتضليل بعض أصحاب المطابع في البلاد العربية أن ينسبوا بعض كتب علمائنا إلى علماء العرب نسبة لا أساس لها من الصحة، كما نسبوا تخميس العشريات الذي هو لعبد الله بن فودي إلى أحمد الفازازي صاحب الأصل المخمس، وكما نسبوا قصيدة وصية الإخوان للشيخ محمد الوالي بن سليمان إلى غيره من علماء العرب.

ومن القصائد المجهول قائلها قصيدة (قبا) التي هي من أبلغ ما مدح به النبي بعد البردة لكننا عثرنا على نسخة مع اسم الناظم ومع ذلك فهو مجهول ولو كانت معروفة ببلاد العرب لطبعت منذ زمن لجودتها، ومطلعها:

هذا النبي الذي في طيبة وقبا ... له النبوة تاج والقرآن قبا

لولاه ما خلق الأفلاك صانعها ... ولا أنار بها نجما ولا ثقبا

أن ساق نسبته من ليس يعرفه ... إلى بني آدم أو طينه نسبا

ونسبة النور والتوحيد ما تركت ... للماء والطين في تكوينه نسبا

إمام مدرسة التنزيل عالمها ... وما قرأ كتبًا منها ولا كتبا

أمّي علّمه الباري وأدبه ... وعلم العالمين العلم والأدبا

أتاه في يوم بدر ما يسر به ... ونال في ليلة المعراج ما طلبا

أسري به فدنا من ربه وجنا ... من سدرة المنتهى في ليلة رطبا

ولم يقل بعد مسراه ورجعته ... لقيت في سفري رمضا ولا نصبا

ومنها قصيدة الوعظ والإرشاد للشيخ علي الوعظي وهو مجهول أيضًا وقد وجدت مطلعها في كتاب الحيوان للدميري:

خير الصنائع تقوى لله فاتقه ... يكفيك في الحشر ما تخشى من الندم

صل الصلاة التي بين الفتى صلة ... وبين خالقه تنهى عن الإثم

أد الزكاة من الأموال تغسلها ... كالثوب يغسل أو ينقى من الدسم

والصوم فرض من الرحمن أوجبه على العباد فمن أدركه فليصم

والحج فرض على الإسلام كلهم من لم يحج كمن صلى ولم يصم

وهي قصيدة جليلة وفيها حكم جلية .

البحر الكريم:

استحدث أهل نيجيريا بحراً جديداً لم يعرف في البحور العربية الستة عشر ولا في بحور المولدين ولم يعرف في غير هذه البلاد وتفاعيله : فاعلن فعولن أربع مرات وقد نظمت السيدة رقية جدة الشيخ عثمان قصيدتها بهذا البحر وهي مفتتحة الأوائل بحروف الهجاء ومطلعها :

الكريم يقبل تائبًا أتاه لا يخاف بخسًا كل من رجاه

بالعذاب يجزي من عصى ويخزي لا ينال عزا من تبع هواه

تب لعل ترحم يا أخي فاعلم أن في جهنم سجن من عطاه

ثم من تمرد في اللظى يصفد من عصى محمداً هكذا جزاه

جبره يكسر عيشه يكدر خيره يقتر قد عظم بلاه

حائراً ذليلاً قد كسى نحولا قد لقى جهولاً ما جنت يداه

خل عن مرادك وأكثر اجتهادك إن في معادك ما سعت تراه

دم على الجماعة والزم القناعة من له الصناعة واجب تقاه

ذو الجلال قدر أن من تجبر في الجحيم يحشر قعرها مأواه

ربنا كريم لم يزل رحيمًا أمره عظيم جل في علاه

نظم الأوابد

إذا كان في أصول اللغة العربية قبل تدوين المعاجم بدعة الافتعال التي أحدثها النحارير كابن دريد وقطرب وثعلب وأدخلوها على الناس وهي ليست من كلام العرب وإنما اصطنعوها من أجل اللبس والتعنيث فعندنا في هذه البلاد ما يجوز أن يطلق عليه بنظم الأوابد وهو نظم غرائب اللغة مجتمعة أو متفرقة في قصيدة.

ومنطقهم في ذلك أن اللغة مهما تنفرت وتوحشت فإنها ما دامت عربية يجب استعمالها حتى تستأنس شيئًا فشيئًا فلا تموت بهجرانها ولعل هذه الفكرة ناشئة من سكان البادية وسكان ما حول الصحراء الكبرى الذين تأثروا بالبداوة إلى حد كبير، كانوا يتفاخرون بمعرفتها ويعتبرون ذلك نبوغًا ومهارة، من ذلك قول الحسن اليوسي المتوفى (١١٠٣) في شرح دالية رأيت كثيراً من رواتها تنبوا أفهامهم عنها ويستغربون كثيراً منها وما ذلك إلا لعموم الغباوة والجهل على أبناء الدنيا وتقاصرهم عن العلوم لا سيما علم اللسان اهـ كلامه.

وقد تأثر علماء بلادنا وما حولها بهذه الفكرة وأقحموا قصائدهم بكلمات غريبة ربما ضلت عن صاحب القاموس ولم يذكرها مثلاً ذلك في الأوابد الثقيلة قول الشيخ محمد بن إبراهيم الخالدي فيما سماه مائتي قاموس، ومطلعها:

تغرب متى ما لم تكن تتطلب ... لعزلبة والعزب للكاب معقب

واعسب إلى نحو العساب مقرطبًا ... كما يثب الجرهاس إن لاح سلعب

تقرب فإن القرب ضئضي ثروة　　وشص لطغموس وظش معقرب

فلا تك دعبوسا رطيطا مخبسا　　ولاتك فانوسا ولا من يجردب

ومن فلحس وفندس وقندس من فقس　　بلاه ففاعوس ونحس مخرلب

ولا تك ذا فحس ولوس وحبرس　　وغطرسة بل طعرسا لا يخطرب

ولاتك جبسا غنشطا عنفطا ولا　　سنوبا ولكن كيسًا لا يخرشب

ولا ما كفنطيس شريس جبلبس　　ولا سابل صنددا إلا يكلتب

ومن قبيل الأوابد رسالة الحريري الشينية وكذلك قوله في المقامة الحلبية :

أيها السائلي عن الضاد　　والظاء لكيلا تضله الألفاظ

إن حفظ الظاءات يغنيك　　فاسمعها استماع امرئ له استيقاظ

هي ظمياء والمظالم والأظلام　　والظلم والظبي واللحاظ

والعظا والظليم والظبي　　والشيظم والظل واللظى والشواظ

والتظني واللفظ والنظم　　والتقريظ والقيظ والظما واللماظ

وعليه توسع بعض الشعراء والأدباء في غرب أفريقيا ، ومن ذلك قول الشيخ محمد جمعة اللبيب يريد إفحام خصم له حين التقيا في مدينة أبادن ، قال له :

عدد إنشاد الأرب　　الأدبي المؤدب

وإن دنوت المذهب　　فقل لمن بالدرب

عـــثلجــتي بشـــجــرتي والعــــود عن عــــرجن بي
والفـــــارق عن فـلطـح قل تمـخـــــــــر فـلـك الأدب
هل مـن فـــتـى تدعـــــوه يحل لـي من شـــغــــرب
إن شـــــثت سل حـطـحـطه رجـــــــــــرج قـل الأربـي
كـــــبكب كـب إليــــــه مـــقـــعـــد حـــال الوصـــبي

وهى تبلغ نحو خمسين بيتًا وكلها تلفيقات من مفردات القاموس المحيط الذي يحفظه الناظم وإن تعجب فعجب شعر الأصمعي للخليفة البخيل الذي يحفظ الشعر من مرة وعنده مملوك يحفظه من مرتين وعنده جارية تحفظه من ثلاث فاحتال عليهم الأصمعي بشعر منه ما يأتى :

صــوت صـــفـــيـــر البلبل هـيـج قـلـب الثـــــمـــل
وأنـت حـــقّـــاً ســـيــدى وســــؤددى ومـــــوللـي
والـعــــــــود دنـدن دنـدن والـطـبـل طـبـطـب طـبـلـي
والـرقـص أرطـب طـبـطـب والماء شـــقــشــقــشـــقلي
شـــــووا شــــووا شـــووا على وريق الســـــفـــــر جل
والـكـل كـع كـع كـكـع خـلـفـي ومـن حــــويـلـلـي
أجـــر فـــيـــهـــا مـــأربا ببــــغــــدد كـــالـدلـدل

فبهت الجميع ولم يحفظوا منه شيئًا فاضطر الخليفة إلى إعطائه بوزنه ذهبًا على أن الفصحاء والبلغاء مجمعون على استهجان الغرائب الوحشية لأنها منافية للمدنية فلا داعي اليوم للتمسك بألف كلمة للإبل وألف كلمة للفرس بينما نحن بحاجة إلى كلمات جديدة للمخترعات الحديثة لذلك قال صفي الدين الحلي:

إنما الخيزبون والدردبيس	والطخا والنقاخ والعلطبيس
لغة تنفر المسامع منها	حين يروى وتشمئز النفوس
خل للأصمعي جوب الفيافى	في نشاف تخف فيه الرؤوس
وقبيح أن يذكر النافر الوحشي	منها ويترك المأنوس
أين قولي هذا كثيب قديم	ومقالي عقنقل قدموس
إنما هذه القلوب حديد	ولذيذ الألفاظ مغناطيس

أغراض الشعر العربي في نيجيريا

ولما كان الباعث لأهل نيجيريا إلى تعلم العربية هو الدين الإسلامي كان لابد من أن ينبع أدبهم من منابع الدين وأن يدور حول أغراض يبررها الدين، لذلك يكثر شعرهم في الأغراض الآتية:

الوعظ والإرشاد

وهو توجيه الناس إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة وصرفهم عن غرور الدنيا وزخرفتها وتذكيرهم بالموت وما بعده وأكثروا من استعمال

الرجز مطية الشاعر مثل ذلك قول الشيخ محمد والي بن سليمان الباغرمي :

أوصيكم يا معشر الإخوان	عليكم بطاعة الديان
إياكم أن تهملوا أوقاتكم	فتندموا يومًا على ما فاتكم
وإنما غنيمة الإنسان	شبابه والخسر في التوانى
ما أحسن الطاعة للشبان	فاسعوا لتقوى الله يا إخواني
واغنموا أوقاتكم بالطاعة	والذكر كل لحظة وساعة
ومن تفته ساعة في عمره	تكن عليه حسرة في قبره
ومن يقل إني صغير اصبر	حتى أخاف الله حين أكبر
فإن ذاك غره إبليس	وقلبه مغفل طموس
لا خير فيمن لم يتب صغيراً	ولم يكن بعينه بصيراً
أما علمت الموت يأتي مسرعًا	وليس للإنسان إلا ما سعى

ورأيت في بعض المطابع المصرية من نسب القصيدة إلى الحضرمي حتى قام بشرحها مفتى الديار المصرية سابقًا الشيخ حسنين مخلوف .

ومنه قول محمد مودي الكشناوي في صرف العنان :

أحمد من يأمر بالمعروف	ينهى عن المنكر والعنوف
بحر صلاته لمن قد أرسلا	بحملة الخير لمن امتثلا

يا صاح فاعلم أن خير الخلق   من فرعن ظلام بعض الحق

ورفض الخوض وقيل قالا   ففاز بالحب له تعالى

جل نجاة التزام الصمت   وغض الأبصار وحسن الصمت

إن الحسود أخبث البرايا   نيط به أكشفة الرزايا

لا تحسد منة المنان   من ذا يدالظ حنة الحنان

تزيد من حسدته شرافة   ثم إلى نفيسك السرافة

ومنه قول السلطان محمد بللو :

ألا يا نفس ويحك حدثيني   حديثا صادقًا لا تكذبيني

أليس الموت محكومًا عليك   ولو عمرت ألفًا من سنين

ولو عمرت وريحك عمر نوح   لكان الموت قطعًا زائرين

فأين الأولون وقوم نوح   وأين السابقون من القرون

ملوك كانت الدنيا لديهم   بأنواع المدائن والحصون

وهم قوم عزيز قد تولوا   عن الدنيا سقوا كأس المنون

ومن ذلك قول الشيخ عبد الله بن فودي في تزيين الورقات :

طربت فأشجاني الطيور الكوالح   وفرحني منها الغيوث الروائح

وخوفني أيضًا ذئاب بوارح   وأمنني منها الظباء السوائح

لقول النبي لا تزال جماعة   على الحق منا أو يجيء المقارح

ألا أبلغن عني لحي رسالة ... تعيها رجال أو نساء صوالح

لعالمهم أو طالب العلم رائم ... لإظهار دين الله فيه يناصح

أقول له قم وادع للدين دعوة ... تجبها عوام أو خواص جحاجح

ولا تخش في إظهار دين محمد ... بقولة قال تأتسيه كناتح

ولا تخش تكذيبًا وإنكار جاحد ... وهزء جهول ضل والحق صائح

وغيبة همّاز وضغن مشاحن ... يساعده من للعوائد راكح

وليس لما تبني يد الله هادم ... وليس لأمر الله إن جاء ضارح

وبين لهم أن العوائد بهرجت ... وسنتنا لاحت عليها لوائح

فلا يمنع الإرشاد عدم قبولهم ... فمدخلهم مولاهم أنت فاتح

فإنك إن بلغتهم ضاع عذرهم ... فساقيهم المولى فإنك جادح

مطيع لما قد قاله سيد الورى ... به بلغوا عني أتته صحائح

وأمر بمعروف ونهي لمنكر ... طريق من القرآن ساد صمادح

وما ضر شمسًا أن نفي العمى ضوئها ... وما ضر حوضًا أن أبته القوامح

ومن أغراضهم التعليم:

وهو ضبط قواعد اللغة وحفظ مبادئ العلم والدين، مثاله يحيى بن أبا ابن سعيد:

يقول راجي ربه المجيد ... يحيى بن أبا جده سعيد

الحـــــمـــــد لله الذي هدانا ... دينا له بأحـــمـــد ارتضـــانا

صلى عليـــه الله ثـم سلمـــا ... مـقـدار كل أنس مـــا تكلمـــا

كــلام أهل النحــو لفظًا فـبـدا ... يحـسن بالسكوت ثم قـصـدا

أقـــســـامـــه ثلاثة لا أربعـــة ... اسم وفعل ثم حرف فاسمعه

ومنها رائية الإعراب :

أيا طالب الإعـراب دونك جـملة ... من أحرفها ألفتها لك في شعري

ثلاثين بيتًا فـارعـهـا وثمـانيـة ... تعلمك يومًا ما تعلم في الشهر

وجـد بدعـاء الخيـر لابن محـمـد ... كما جاد في تعليمك النحو في الشعر

ومن ذلك عطية المعطي للشيخ عبد الله الثقة : وهي في ألف وخمسمائة بيت في مسائل العقيدة والعبادة والأخلاق ولا ينقصها إلا بعض المسامحات النحوية والعروضية ومما قال فيها :

والحال أوصاف خلق قد بدا لهم ... في قلبه قبل قول الخلق في الشيم

لأجل ذلك سـمي عـاقـلاً فطنا ... أو جاهلاً أو حبيب الله ذا الكرم

والحال كالبدر في أرض إذا دفنت ... وإن نبت ظهـرت في الأرض للأمم

وأفـضل الحـال منا طاعـة وتقى ... وكل حـلا سوى ذا يبس في الحكم

الحب الإلهي

ومن أغراضـهم الشعـرية ما يسمونه بالحب الإلهي على مذهب رابعة العدوية وابن الفارض ، مثاله قول الشيخ محمد ناصر الكنوي :

القلب أنفس شيء أنت مالكه ... فاحرسه علك يومًا تسكن الغابا
القلب بيت تجلى فيه خالقه ... فكن على الباب حجابًا وبوابًا
وكن غيوراً على مولاك لا تدعن ... إلا بإذنك غيرا يقرع البابا
يدعوك ربك أن تخلو به أبدًا ... ألا تكون ديوثًا ليس محجابًا
ها أنت تدخل وغلا كل طارقة ... عليه أنى ترى التواب توابا
يرى خواطرك اللاتي تطوف بها ... خيراً وشراً وترغيبًا وإرهابًا
تظن أن شياة القلب ليس لها ... راع سواك وأن الحق قد غابا
أقبل عليه ولازم بابه فعسى ... يكسوك من حلل التوفيق جلبابا
واجعلك بين يديه نصب منظره ... من ظن أن غاب عن مولاه قد خابا
جعلت جسمي دارا والمنى كتبا ... وساحة القلب صندوقًا ودولابا
لا أبيح لشخص أن يرى كتبى ... إلا لمن يصلح الصندوق والبابا

المديح

ومن أغراضهم المديح غير أنه لا يروج المديح حيث لا يروج التكسب بالشعر عند الأعاجم الذين لا يتذوقون جمال الأدب، لذلك ولى العلماء وجهة مدحهم إلى النبي ﷺوأكثروا من ذلك في مختلف المناسبات الدينية والأعياد الإسلامية، ويمدح بعضهم أصحاب الطريقة التي ينتسبون إليها من قادرية وتجانية، ويمدح بعضهم الشيوخ والأساتذة الذين تعلموا منهم وقليلاً

من مدحوا الأمراء والملوك، ومن ذلك جيمية الشيخ يوسف البرناوى تلميذ الحاج أمين الكانمي ومطلعها:

صلى الإله على النبي الأبهج ... ما صاب صيب كل غيم زعبج

ولد النبي كان نور جبينه ... بدر تبلج فوق ليل دعلج

فتضوعت أرجاء مكة صندلا ... وقت الولاد بعرفة المتأرج

أهلاً وسهلاً بالربيع ومرحبًا ... بولاد أحمد ذي السنا المتوهج

ومنها قصيدة الشيخ عبد الله المنسوجة على الحروف الهجائية ومطلعها:

أصلي أصيلاً بالمدائح أبدًا ... أصلي أصيلاً بالمدائح أبدًا

بدا بدره منه بدارًا بداره ... وبدنة أبدان البوادى تدبب

التهنئة

ومن أغراضهم الشعرية التهنئة في القدوم من السفر أو بالشفاء من المرض أو بارتقاء منصب أو بولادة مولود جديد مثالها قول الحاج أحمد تيجانى عثمان لتهنئة صديق له رزق ولدًا جديدًا وسماه أحمد فقال مهنئًا:

أيا أحمد الفياض يا معدن العلا ... سليل أولي المجد الصميم الذي علا

برزت إلى الدنيا عزيزًا بطالع ... سعيد عريق الفضل قد أطرب الملا

ببهجتك الغراء فأل محقق ... تكون به ملجأ حوى أحسن الحلا

ولم لا فعين الفضل أنت لأنه ... تفرعت من أصل المكارم والعلا

الاستغاثة

ومن أغراضهم الاستغاثة وهي التوسل بأسماء الله تعالى لقضاء الحوائج مثاله قصيدة الشيخ محمد تكرو الفلاني يقول :

شكوت إلى رب رحـيم بعلتي ... لأنواع أحـزان أناخت بلبـستي

ويا كاشف الكرب العظيم ومن به ... يدوم حـبـور المؤمنين بجنة

أنا المذنب المطرود حـول المزابل ... فأنت اللطيف الطف بلطفك غربتي

فليس لمطرود سوى فيض فضلك ... فـها أنا لا أرجـو سواك لفاقتى

فمن لي إذا ما لم تكن لي حاضراً ... فيا منقذ الغرقاء عجل بكربتي

إلهي لقد طال انتظاري لفرجك ... فعجل لفرجى لا تخيب بمنيتي

وإن كنت أهلاً أن أجازى بخزية ... فإنك أهل أن تديم بسـترتي

إلى أن قال :

إذا كنت في هم وخوف وحيرة ... فخذ بقصيدى تنج من كل غمة

ولعلمائنا قصائد جمة عديدة في الاستعانة بالله .

نظم المنثور

هو ما يدعى في علم البديع بالعقد وذلك إذا كان الأصل نثراً وأرادوا تسهيل حفظه عقدوه نظمًا على بحر الرجز .

مثاله نظم الشيخ محمد بن عبد الرحمن البرناوي لمختصر الأخضري في الفقه المالكي:

فهذه منظومة قد احتوت ... على علوم الأخضري اشتملت

لكونها أيسر للصبيان ... ومن يريد الحفظ من شيخان

وزدت فيها حيث ما قد سامحت ... قريحتي فيداً به تكملت

أعيذها بالشفع ثم الوتر ... والفجر ثم والليالي العشر

من شر كل حاسد محتال ... معاند وجاهل مغتال

وكذلك نظم الشيخ عبد الله بن فودي نقابة العلوم للإمام السيوطي الجامعة لأربعة عشر فنا فقد نظمها الشيخ عبد الله في ألف ونيف ومائتين بيتًا.

الحث على طلب العلم

كان ذلك من أغراضهم الشعرية ولقد أكثروا قصائد كثيرة في مدح العلم وأهله والحث على طلبه، ومن ذلك قول ابن الصباغ الكشناوي:

فهذه أرجوزة الفتيان ... على طفو النور بالعصيان

العلم نور الله كالإيمان ... ينقصه تلعبة الصبيان

والزم هديت التوب بالجنان ... واستصحب الأعمال بالأركان

قال وكيع صاحب التبيان　　العلم نور الله يا إنسان

فخذه بالطاعة والإحسان　　فلا تكن كالقرد والثيران

المناظرة

وهي مجادلة عالمين في موضوع ديني أو علمي مثل ما تقدم بين السيوطي والمغيلي أو مثل ما جرى بين ابن فودي ومصطفى البرناوي يقول مصطفى :

عليك منا تحيات مباركة　　شممن مسكًا وسكا من يلاقونا

أيا ابن فودي قم تنذر أولى الجهلا　　لعلهم يفقهون الدين والدُّونا

فامنع زيارة نسوان لوعظك إذ　　خلط الرجال بنسوان كفى شينا

لا تفعلن ما يؤدي للمعايب إذ　　لم يأمر الله عيبًا كان يؤذينا

أن الممات وما بعد الممات وجهلا　　بالعواقب وعظ كان يكفينا

وأبيت المصطفى يج يتممها　　فى عام رش مع زيد العد يكفينا

فأجاب عنها الشيخ عبد الله بقوله :

يا أيها ذا الذي قد جاء يرشدنا　　سمعا لما قلت فاسمع أنت ما قلنا

نصحت جهدك لكن ليت تعذرنا　　وقلت سبحان هذا كان بهتانًا

إن الشياطين إن جاءوا لمجلسنا　　همو يبثون سوء القول طغيانًا

لسنا نخالط بالنسوان كيف وذا　　كنا نحذر لكن قلت سلمنا

إن كان ذلك لكن لا أسلم إن　　يتركن بالجهل إن ذا كان عصيانًا

هذي البلاد وجدنا قومها غرقوا ... في الجهل تمنعهم أن يفقهوا الدينا
قد قيل تحدث للأقوام أقضية ... بقدر ما أحدثوا خذ ذاك ميزانًا

إفحام الخصم

هو أن يجادل اثنان بالشعر في مسألة على مثال نقيضة من نقائض جرير والفرزدق ويكون لأحدهما الغلب فيقول الشعر فخراً، مثاله قول الحاج عمر الكنوي الكركي على مناظرة بينه وبين أحد العلماء في مد الجلالة قال الحاج عمر إن اسم الجلالة مدا زائداً، ويقول معارضه لا مد فيه أكثر من ألف واحد فرد عليه بقوله هذا:

بحق رب الورى يا قوم فانتبهوا ... فإن في دهرنا هذا أباليسا
جالوا فجاءوا بأقوال مزخرفة ... وكل أقوالهم إفك متى قيسا
إذ جاءنا واحد منهم بخدعته ... يريد تجربة فينا وتدسيسًا
بزعمة أن فيهم عالمًا فطنا ... يقول لا مدة في الله تلبيسا
قلنا كذبت كذبت بل كذبت أجل ... وقد يشابه ما قولت كابوسا
لا تجدوا من يصدق قول عالمكم ... سوى الذي صار غوغاء وناموسا
اسم الجلالة معروف بمدته ... بين الجماهير من تورو إلى حوسا
أهل الأقاليم قد مدوا بلا فرق ... برا وبحراً إلى لندن وباريسا[1]

(١) أراد الحاج عمر إفحام الخصم بأي ثمن لذلك ذكر الذين ليسوا بالعرب حتى يسموا خالقهم باسم عربي، ولكل قوم اسم الله في لغته وليس منه مد.

إن الفلاسفة الأولي لقد نطقوا بمده مثل سقراط وطاليسا
وكلهم نطقوا بالمد ياعجبا لمسلم صار ورواراً وقندوسا
فإن أستاذنا عثمان علمنا فرقًا إذا قيل جاموسى وجاموسا
بجهله من أتى كيما يفضحنا ولو أتى من بعيد طوس أو سوسا
ولو أتى بعلوم مثل سنبسرا أو مثل بلعام أو شيطان بل بيسا
يئب بخزي وغبن من غباوته أضحوكة بين أهل الله انكيسا
ألقوا حبالهم، ألقوا عصيهم فسل كأن بأيدينا عصى موسى
خذها لقطع أقاويل الغبي على ما كان يهذي به إذ كان منحوسا
وما نظمنا على فخر ولا بطر لكن قصدنا به شكراً وتأسيسا

المراسلات

ومنها المراسلات: وهي الأبيات التي ينظمونها للتراسل الإخواني فيما بينهم فقد أكثروا من هذا النوع إلى ما لا حد له، من ذلك قول محمد بيغورى الإلورى لشيخ أبي بكر الهوساوي يطلب منه شرح المختصر وكلاهما من أوائل العصر الإنكليزي:

فمني تحيات مزينة الحلا تروح كما المسك المنم على الولا
لمن هو كالمصباح ضاء بليلة ويأوى إليه الناس طرا تسللا
وذلك جدي أو أبي أو أخو أبي أبو بكر فوق القرون الذي علا

هو العالم الأستاذ ناو بمن مضى | من العلما السودان مستشهر العلا
أيا شيخ شيخ الكل كن لي ناصحًا | ومنصح قلبي بالذي كان أملا
وكن موفيا لي مثل ما كنت طامعًا | فهيج على القول والعون شملاً
وأنت أمين والحفاوة أثبتت | لديك سخيف الجنب لم تك من قلا
فوكلت أمري كله بك سيدي | فلا تتركني كاللغى باللقى خلا

ومن أمعن النظر في هذه الأبيات يشم فيها رائحة التقليد للشاعر الجاهلي الشنفرى الأزدي، ولكن بيغوري كان يستعمل الجمع حيث يستعمل الشنفرى المفرد.

التقريظ

ومن أغراضهم تقريظ الكتاب والثناء على المؤلف بالشعر، من ذلك قول إمام بوشي يقرظ كتاب الشيخ محمد ناصر الكنوي وهما من المعاصرين:

وكم من فراة لا كصدى لوارد | وكم من فتى في سعده لا كمالك
وكم من عميد الوقت لا مثل ناصر | ولكن طبع الناس تعظيم هالك
فتى كنوي ليس يفري فرية | خلا لك سعدي الجو أنت ومالك
ولو كان عندي من لسان مبالغ | لخشنت في أخلاقه بطن سالك
يقولون قد كاد الحليم لحلمه | يكون نبيا سامعًا صوت مالك
فيالك من شيخ يضن بمثله | الزمان جزاك الله ربي ومالكي

التخميس

إضافة ثلاثة أجزاء إلى جزء البيت الواحد من الشعر مع جعل الأجزاء الثلاثة على قافية الجزء الأول من البيت وبعبارة أخرى هو أن يؤتى بخمسة أقسمة كلها من وزن القافية للأقسمة الأربعة الأولى ويتحد القسم الخامس مع الخامس من الأولى وهو مما استحدثه المولدون في العصر العباسي وقد تعاطاه كثير من أهل العلم في نيجيريا وخمسوا كثيراً وكثيراً من القصائد الوعظية والمدائح النبوية.

مثاله تخميس الشيخ عمر بن محمد الكبوي بعصر المغيلي لقصيدة بانت سعاد ومطلعها:

دمي بسيف الهوى والهجر مطلول   وعقد صبري عن الأحباب محلول

ودمع عيني عن الأرجاف موصول   بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

متيم أثرها لم يفد مكبول

ساروا وجاروا على ضعفي وما عدلوا   وعن غرامي وأشجاني فما سألوا

ما حال من أهله بالوصل قد بخلوا   وما سعاد غداة البين إذ رحلوا

إلا أغن غضيض الطرف مكحول

حسناء منظرة حنفاء محنية   حلواء منطقة عقباء معطرة

أحباء مقعدة عزباء منفردة   هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة

لا يشتكي قصر منها ولا طول

ومنها تخميس الشيخ عبد الله بن فودي لقصائد العشريات للفازازي وهي معروفة ومشهورة ولم ينسب إليه في طبع الكتاب بالقاهرة.

التربيع

هو أن يزدوج بيت جديد ببيت قديم بحيث يكون المصراع الأخير جديداً وتتمة للبيت الأول المصراع الأول من البيت الثاني، مثاله قصيدة زين العابدين عليّ بن الحسين:

كتاب فيه أشعار تجلى عن القلب المغفل كل رين

يوالي قولها نسقا ووعظا وتذكيراً علي بن الحسين

تبارك ذو العلا والكبرياء تفرد بالجلال وبالبقاء

وسوى الموت بين الخلق طرا فكلهم رهائن للفناء

ودنيانا وإن ملنا إليها وطال بنا المتاع إلى انقضاء

ألا إن الركون على غرور إلى دار الفناء من العناء

فقاطنها سريع الظعن عنها وإن كان الحريص على الثواء

فقال الحاج عمر الكنوى من أهل العصر الإنكليزي:

كتاب فيه أشعار تجلى عن الذهن الصدى رسوخ شين

وإن سنا مواعظه يزيل عن القلب المغفل كل رين

يوالي قولها نسقا ووعظا وإنذاراً بنظم كاللجين

وتهـديداً وتمثـيـلاً وزجـرا   وتذكـيـراً علي بن الحسين
تبـارك ذو العـلا والكبـرياء   توحـد بالكمـال وبالسناء
تنزه عن شـريك أو فناء   تفـرد بالجـلال وبالبـقـاء

وهكذا مزج الحاج عمر تربيعه بالأصل امتزاج الماء بالراح مما يدل على المقدرة والنبوغ وعمق الاطلاع في اللغة.

الرثاء

ومن أغراضهم الرثاء فهم يرثون علماءهم وأمراءهم بعد موتهم أكثر مما يمدحونهم في حياتهم، وقد رثيت أنا شيخي ١٩٤٤م بهذه الأبيات الركيكة أولها:

شجوني هاجها نوح الحمام   وحزني عاق عن أكل الطعام
لموت الشـيخ آدم أي نماج   دليل الخير مصباح الظلام
أيا أعـداءه قـد مـات عنكم   فـحـيـوا لا تموتوا بالدوام
ألما مـات أنتم خـالدون   فكل النفس ذائقـة الحـمـام
وناظمـهـا ألف دال وميم   إلى القـراء مني بالسـلام

●●●

تم الكتاب بحمد الله وعونه

وصلى الله على النبى المصطفى وآله وصحبه وسلم.

هذا آخر كتاب ألفه المرحوم الشيخ آدم عبد الله الإلوري قبل وفاته بشهر ضمن الكتب المؤلفة من تأليفاته في التاريخ والأدب والفلسفة والدعوة الإسلامية ولم يكتب الله إخراج الكتاب في حياته وعليه نتضرع إلى المولى عز وجل أن يتغمده برحمته وأن ينور ضريحه لأجل خدمات جليلة قام بها لرفع راية الإسلام.

●●●



الفهرس